البيت الحرام فى القرآن الكريم

دراسة تحليلية بلاغية

إعداد الدكتور

أحمد حسن على محمد

مدرس البلاغة والنقد بالكلية

المقدمة

الحمد لله الذي جعل كلمة التوحيد لعباده حرزاً وحصناً ،وجعل البيت العتيق مثابةً للناس وأمناً ، وأكرمه بالنسبة إلى نفسه تشريفاً وتخصيصاً ومنّا ،وجعل زيارته والطواف به حجاباً بين العبد وبين النار ورحمنا ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا

وبعد

فإنّ الله تعالى لم يخلق عباده عبثاً ،ولم يتركهم سدىً،لكن خلقهم لغاية عظيمة ذكرها في كتابه فقال سبحانه ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ الذاريات ٥٦ فالعبادة هي مهمة الخلق جميعاً ،حتى الملائكة في السماوات العلا،وكل شيء على وجه الأرض من دوابّ وشجر وجماد ، مصداقاً لقوله تعالى ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ الاسراء ٤٤ .

والله سبحانه وتعالى لما خلق الملائكة قبل آدم جعل لهم بيتاً للعبادة في السماء وهو البيت المعمور ، والملائكة قائمة بالعبادة فيه ما بين ساجد وراكع ومسبِّح إلي أن تقوم الساعة ، ثم لما أهبط آدم إلى الأرض أهبط معه البيت الحرام ليكون شعاراً للتوحيد في الأرض لآدم ولذريته من بعده إلي قيام الساعة كما كان البيت المعمور في السماء .

هذا وقد حج البيت الحرام كل الأنبياء والمرسلين من لدن آدم عليه السلام ، إشارة إلي قدسية هذا البيت العتيق ، وما له من مكانة عظيمة عند الله ، ثم شاء الله أن يرفع إبراهيم عليه السلام قواعده – بعد أن عفت آثاره عقب طوفان نوح

عليه السلام - وأمره أن ينادي في الناس: إن الله قد كتب عليكم الحج إلى هذا البيت فحجوا، فأدت الجبال حتى الطف في أرحام النساء وأصلاب الرجال (١)، في إن الله تعالى ربط القلوب به وجعل النفوس تحن إليه استجابة لدعوة إبراهيم عليه السلام حين دعا لذريته في هذا المكان فقال: فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم (٢)، فالكعبة هذا البيت تهوي القلوب إلى إليه النفوس وتشتاق إلى مجاورته وزيارته، فما من موحد على وجه الأرض إلا وتأتي أعماله وأفعاله أن يزور بيت الله الحرام ويطوف بأستاره، وإنها من مشاريع إلى الزيارة إلا وتشتاق نفسه إلى تكرارها في كل عام.

كيف لا! وإنه شرف لله هذا البيت فنسبه إلى نفسه، وجعله حرماً وبلداً آمناً لطالب أن يطلب فيه، وبارك فيه حتى الجمادات منه ثم الأرض في الجوار من حوله وجعل الصلاة في مسجده بمائة ألف صلاة، وجعل الحج إليه ركناً من أركان الإسلام وفريضة على كل مستطيع إليه سبيلاً فأردت أن أشارك إخواني المسلمين في الحديث عن هذا البيت العتيق.

- ١٤١٩ -

وقد حدث نفسي إلى زيارته والاتصال الفعلي إلى مجاورة المسجد الحرام إلا أنني لم أكن أستطيع إلى ذلك سبيلاً فأردت أن أتحدث إلى إخواني المسلمين عن البيت الذي تحدثت عنه الملائكة حول آياته في القرآن الكريم، فعسى أن يكون هذا البحث الذي تخصص في الملائكة مباحث وأبوابه استوفيهم هذه القضية وجوانبها جانباً، وقد اعتمدت فيه على المنهج التحليلي الذي يقف عند كل كلمة لمعرفة الكشف عن جوانب بلاغتها وإعجازها وإضافة العلم من دراسة القرآن إلى جانبه من يستفيد من بحثي، وقد سار ترتيب البحث على النحو التالي:

التمهيد: الكلمات التي تدور حول فضائل البيت الحرام.

المبحث الأول: الدلالات التي اكتسبت من اسم وإضافة هذا البيت وتكليف الله به.

المبحث الثاني: الدلالات التي اكتسبت من الأوصاف التي وصف بها البيت الحرام ووجوه إعجاز الصياغة القرآنية فيه.

المبحث الثالث: الدلالات التي اكتسبت من أحكام وتشريعات الحج إلى هذا البيت العتيق.

الخاتمة: أهم النتائج التي توصلت إليها من خلال هذا البحث.

وقد

تمهيد

فضل البيت الحرام

إن فضائل البيت الحرام لا يمكن حصرها لأنها غير متناهية ولكن نذكر من فضائله ما تيسر مما ذكرته كتب التاريخ .

وأول فضائله التي يعرف بها أنه أول بيت وضع للناس كافة في الأرض للعبادة والتوجه إليه. قال تعالى ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴾ آل عمران ٩٧ .

كذا من فضائله أنه خلق قبل أن تخلق السماوات والأرض بأربعين سنة فقد روى الأزرقي في كتابه أخبار مكة عن سفيان بن عيينه عن بشر بن عاصم عن سعيد بن المسيّب قال : قال كعب الأحبار" كانت الكعبة غثاءً على الماء قبل أن يخلق الله عز وجل السماوات والأرض بأربعين سنة ومنها دحيت الأرض" [1] كما روى عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال" لما كان العرش على الماء قبل أن يخلق الله السماوات والأرض بعث الله ريحاً هفافة فصفقت الماء، فأبرزت عن حشفة في موضع هذا البيت كأنها قبة ، فدحا الله الأراضين من تحتها فمادت ، ثم مادت ، فأوتدها الله تعالى بالجبال فكان أول جبل وضع فيها أبوقبيس فسميت مكة أم القرى " [2] .

أيضا من فضائله أنه أول بيت طيف به في الأرض ، وأن الملائكة قد حجه قبل آدم عليه السلام، فقد جاء عند البيهقي عن أنس بن مالك رضي الله عنه " أن رسول الله ﷺ قال : كان موضع البيت في زمن آدم عليه السلام

(١) أخبار مكة للأزرقي ج ١ ص ٣١ - تحقيق / رشدي الصالح ملحس - ط دار الأندلس - بيروت ١٩٩٦ م

(٢) المرجع السابق ص ٣٢

شبراً أو أكثر علماً، فكانت الملائكة تحج إليه قبل آدم ثم حج آدم فاستقبلته الملائكة فقالوا يا آدم من أين جئت ؟ قال حججت البيت فقالوا : قد حجته الملائكة قبلك [1] ....."

أيضا من فضائله : أنه حج إليه كل الأنبياء إلا هود وصالح عليهما السلام " فقد روى البيهقي في سننه عن ابن عباس أنه قال : " لقد سلك فج الروحاء سبعون نبياً حجّاجاً عليهم ثياب الصوف، ولقد صلى في مسجد الخيف سبعون نبياً" [2] .

وكذلك روى ابن إسحاق عن عروة بن الزبير رضي الله عنهما أنه قال : " ما من نبي إلا وقد حج البيت إلا ما كان من هود وصالح ، ولقد حجه نوح فلما كان من الأرض ما كان من الغرق أصاب البيت ما أصاب الأرض ، وكان البيت ربوة حمراء فبعث الله هوداً عليه السلام فتشاغل بأمر قومه حتى قبضه الله إليه فلم يحج حتى مات ، فلما بوّأه الله لإبراهيم عليه السلام حجه ،ثم لم يبق نبي بعده إلا حجه" [3] .

أيضا من فضائله أن الله تعالى جعله مثابة للناس وأمناً يثوبون ويعودون ويكررون الزيارة إما حجاً أو عمرة أو كسب ثواب أو ابتداء توبة أو عكوفاً أو مجاورة ، يثوبون إليه شوقاً وتعلقاً ، فهو المثابة والمرجع للناس جميعاً دوماً وأبداً وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا ﴾ البقرة ١٢٥ .

(١) شعب الإيمان ج٣ ص ٤٣٤ حديث رقم ٣٩٨٦ تحقيق عبد العلي عبد الحميد حامد - ط دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الأولى ١٤١٠ هـ .

(٢) السنن الكبرى ج ٥ ص ٧٧ - حديث ٩٦١٨ - تحقيق / محمد عبد القادر عطا - ط مكتبة الباز - مكة المكرمة ١٤١٤ هـ .

(٣) سيرة ابن إسحاق ج ١ ص ٥٧٢ ط دار الفكر الطبعة الأولى .

أيضا من فضائله : أنّ من قصده لا يعود إلا بأجر أو غنيمة أو صلاة جنة ، ومن قصده لا دافع له غير الصلاة فيه عاد كيوم ولدته أمه ، ومن أتاه مخلصاً ومات في طريقه إليه دخل الجنة بدون حساب (١).

أيضا من فضائله : أن الطواف به سبعاً يعدل عتق رقبة ، وأن الطائفين هم موضع مباهاة الله عز وجل ملائكته ، وكثرة الطواف به سبيل لمحو الذنوب. فقد جاء في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : "من طاف بالبيت سبعاً لا يتكلم إلا بسبحان الله ، والحمد لله، ولا اله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، محيت عنه عشر سيئات وكتبت له عشر حسنات ورفع عشر درجات ، ومن طاف لا يتكلم وهو في تلك الحال خاض في الرحمة كخائض الماء برجليه "(٢).

ومن فضائله أيضا : أن الصلاة في هذا البيت العتيق بمائة ألف صلاة ، قال ﷺ : " الصلاة في المسجد الحرام بمائة ألف صلاة ، والصلاة في مسجدي بألف صلاة ، والصلاة في بيت المقدس بخمسمائة صلاة "(٣).

ومن فضائله أيضا : أن الله عز وجل ينزل فيه الكثير من الرحمات على الطائفين بالبيت والمصلين فيه والناظرين إلى الكعبة ، قال رسول الله ﷺ : " إن الله تعالى ينزل على هذا المسجد - مسجد مكة - في كل يوم وليلة عشرين ومائة رحمة ستين للطائفين وأربعين للمصلين وعشرين للناظرين "(٤).

---

(١) راجع : إخبار الكرام بأخبار المسجد الحرام ص ٤٩ .

(٢) سنن ابن ماجه ج ٥ ص٩٨٥ حديث رقم ٢٩٥٧ ط دار الفكر تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي

(٣) كنز العمال في السنن والأقوال للمتقي الهندي عن أبي الدرداء ج ١٢ ص ٢٤ حديث رقم ٣٤٠٣٩ ط مؤسسة الرسالة بيروت ١٩٨٩م.

(٤) كنز العمال ج ١٢ ص ٣٤٥ ح رقم ٣٤٦٢ عن ابن عباس .

ومن فضائله : أن الدعاء في هذا البيت مستجاب وخاصة في هذه المواضع : في جوف الكعبة ، ثم عند الحجر الأسود ، ثم خلف المقام ، ثم الملتزم ، ثم عند بئر زمزم ، ثم الدعاء على الصفا والمروة ، والدعاء بينهما ، ثم الدعاء بين الركن والمقام (١).

هذا وفضائل البيت الحرام كثيرة لا يتسع المقام لذكرها كلها نكتفي بما ذكرناه من باب الدلالة علي الفضائل وليس علي حصرها.

---

(١) راجع : إخبار الكرام بأخبار المسجد الحرام ص ٧٣ وما بعدها .

المبحث الأول

بلاغة القرآن في بيان عظم قدر البيت الحرام ومكانة بانيه عند الله

إن مكانة البيت الحرام في قلوب الموحدين لا تعدلها مكانة ، إذ هو مهوى الأفئدة ومرغوب النفوس،جعله الله أماناً لكل خائف، وملاذاً لكل مطلوب ، وجاه من الطغاة والجبابرة على مرّ الدهور ، ثم شاء الله ان يكون شعاراً للتوحيد إلي الأرض إلي قيام الساعة ، وسوف نستعرض في هذا المبحث إن شاء الله الآيات التي نصّت علي عظم قدر هذا البيت ومكانة بانيه عند الله .

١- كونه أول المساجد وضع فى الأرض :

قال تعالي : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ ٩٦ - ٩٧ سورة آل عمران .

أورد النيسابوري في سبب نزول هذه الآية أن المسلمين واليهود تفاخروا فقالت اليهود بيت المقدس أفضل وأعظم من الكعبة لأنه مهاجر الأنبياء وهو الأرض المقدسة ، وقال المسلمون بل الكعبة أفضل، فأنزل الله تعالى هذه الآية [1] ، والمعنى أن أول بيت وضع للعبادة وجعل متعبداً جامعاً للناس جميعاً هو هذا البيت الذي ببكة - وهي مكة - حاله كونه مباركاً عظيم الثواب كثير الخيرات هدي للعالمين . ثم شرع الله في بيان فضل هذا البيت فأشار الله فيه آيات بينات منها مقام إبراهيم الذي فيه أثر قدميه، ومنها أن من دخله كان آمنا ، ثم قرر بعد ذلك أن أنه فرض علي الناس حجه ما تيسر فهم ذلك .

(١) أسباب النزول للنيسابوري ص ٨٤ ط المكتبة التوفيقية بدون .

وأول ملامح البلاغة في الآية الكريمة هو: ابتداؤها بالأسلوب الخبري المؤكد بأكثر من مؤكد فترى الاستهلال بإنّ المؤكدة ثم بالجملة الاسمية ثم باللام الداخلة علي خبر إنّ ، مما يشير إلي أن الكلام قد وُجّه إلي مخاطبين يجيدون التشكيك والإنكار ، يوضح لنا ذلك ربط هذه الآية بما قبلها

فالآية التي قبلها وهي {قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ } ردٌّ علي هؤلاء اليهود الذين يبدءون ويُعيدون في مسألة تحويل القبلة إلى الكعبة ويدّعون أن النسخ وتحويل القبلة باطل يدل علي بطلان الدين فبين الله كذبهم و أن هذا الدين وهذه القبلة هو ملة إبراهيم حنيفًا وما كان من المشركين ،فأولى بهم أن يتبعوا هذه الملة - ملة الإسلام - حتى يتخلصوا من اليهودية التي ورطتهم في فساد دينهم ودنياهم فقال: " قل صدق الله.... " أي قل يا محمد ثبت أن الله صادق فيما أنزل وأنتم الكاذبون - فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفا ... "[1]

إذن: اتضح أن بلاغة الكلام تقتضي هذا التأكيد لأنه موجه إلي قوم هم أهل تشكيك وإنكار ومكر وخداع وجدال ، لطالما جادلوا الأنبياء والرسلين ، وحاولوا التشكيك في رسالاتهم .

يجلي بلاغة التأكيد هنا الإمام البقاعي فيقول : " لما ألزمهم الله سبحانه وتعالى بالدليل الذي دل علي النسخ ألهم علي غير ملة إبراهيم وأتباعه ، أخبر عن البيت الذي يحول إليه التوجه في الصلاة .. أنه أعظم شعائر إبراهيم عليه السلام التي كفروا بتركها . ولذلك أبلغ في تأكيده فقال سبحانه .... إن أول بيت ... "[2]

(١) ينظر تفسير الكشاف ج ١ ص ٤٤٦ ط دار الفكر .

(٢) نظم الدرر ج ٢ ص ١٢٧ - تحقيق / عبد الرزاق غالب المهدي - ط دار الكتب العلمية - بيروت - بدون

فالغرض من التوكيد هنا الرد علي هؤلاء المجادلين وتأكيد الخبر بليغ تأكيد ؛ "لأن وظيفة الخبر حينئذ هي تثبيت هذا المعنى في تلك النفوس الرافضة له ، فلا مفر من أن يكون قوة العبارة ووثاقتها ملائمة لحال النفس قاهرة على الإقناع "(١).

هذا وقد وجّه الطاهر ابن عاشور هذا التوكيد الوارد في أول الآية توجيها آخر فأشار إلى أن الغرض من التوكيد هنا مجرد الاهتمام وليس لرد إنكار منكر،فقال : " هذا الكلام واقع موقع التعليل للأمر في قوله: " فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفا " ؛ لأن هذا البيت المنوّه بشأنه كان مقاماً لإبراهيم؛ ففضائل هذا البيت تحقق فضيلة شرع باتيه في متعارف الناس ..... وقد أذن بكون الكلام تعليلا موقع " إنّ " في أوله، فإن التوكيد بـ إنّ هنا لمجرد الاهتمام وليس لرد إنكار منكر أو شك شاك . ومن خصائص " إنّ " إذا وردت في الكلام لمجرد الاهتمام : أن تغني غناء فاء التفريع وتفيد التعليل والربط كما في دلائل الإعجاز "(٢).

وكلام الشيخ ابن عاشور كلامه وجيه يستحق التقدير والإجلال فكأن "إنّ " هنا وقعت موقع الفاء في ربط الآية بالآية التي قبلها والمعنى : فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين فأول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا . وقد دلل على كلامه بما أورده الشيخ عبد القاهر من إفادة " إنّ " للربط بين الجملتين التي تكون الثانية منهما كالتعليل للأولى .

---

(١) خصائص التراكيب د / أبو موسى ص ٨١ - ط مكتبة وهبة - الطبعة الرابعة ١٩٩٦ م

(٢) التحرير والتنوير ج ٤ ص ١١٣ - ط دار سحنون - تونس .

ألا إنني لم أجد في نص الشيخ ما يفيد عند عملها عمل فاء الربط والتعليل أي تكون لمجرد الاهتمام . بل إن كلام الشيخ عن هذا المعنى الذي أفادته " إن " كان عقب إيراد كلام ابن الأنباري بأن الأسلوب إذا أكد بأكثر من مؤكد يكون جوابا عن إنكار منكر (١).

وعلى ذلك يمكن التوفيق بين رأي الشيخ ابن عاشور والرأي الأول : بأن هذا الأخير معاً الإنكار عليهم والتعريض بكذبهم ودعوتهم إلى اتباع ملة الإسلام التي هي ملة إبراهيم عليه السلام . ومن شرائع هذه الملة الاتجاه في الصلاة إلى هذا البيت الذي وضع للناس جميعا ليكون علماً مشهوراً بالحس على معنى الوحدانية ونفي الإشراك .

لقد تأكد بهذا الأسلوب أولية وضع البيت الحرام في الأرض قبل غيره من البيوت التي وضعت للعبادة ، وقد دلت السنة أيضا على ذلك فقد جاء الحديث الشريف عن أبي ذر رضي الله عنه قال : قلت يا رسول الله أي مسجد وضع في الأرض أول ؟قال الله المسجد الحرام . قال . قلت ثم أي؟ قال المسجد الأقصى . قلت كم بينهما ؟ قال أربعون سنة . ثم أينما أدركتك الصلاة بعد فصله فإن الفضل فيه "(٢).

ودلالة الآية على الأولية في البناء تؤكد الأولية في الفضل والشرف ؛ لأن المقصود الأصلي من ذكر الآية هو بيان الفضيلة وترجيحه على بيت المقدس وهذا إنما يتم بالأولية في الفضل والشرف .

---

(١) براجع دلائل الإعجاز ص٣١٦ ، ٣١٩ تحقيق شاكر مطبعة المدني الطبعة الثالثة ١٩٩٢ .

(٢) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء - باب يزفون النسلان في المشي ح رقم ٣٣٦٦ .

و" أول" اسم للسابق في فعل ما . فإذا أضيف إلى اسم جنس فهو سابق من جنس ذلك المضاف إليه في الشأن المتحدث عنه ، وهو هنا مضاف إلى جنس بيت فهو أول البيوت التي وضعت للعبادة [1].

وقوله "وُضع " ببناء الفعل لما لم يسم فاعله حذف منه المسند إليه وهو الله سبحانه وتعالى . والعلة في حذف المسند إليه كونه معلوما ولا يشك فيه شاك؛ لأن صاحب هذا البيت وهو الذي بين مكانه للناس ، ومعنى" وضع للناس" أي جُعل معبداً لهم ، كما أن في بنائه للمفعول إشارة إلى أن وضعه كان قبل إبراهيم عليه السلام كما جاء عند الأزرقي " أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال لكعب . يا كعب أخبرني عن البيت الحرام . قال كعب : أنزله الله من السماء ياقوتة معوفة مع آدم عليه السلام ، فقال: يا آدم ! إن هذا بيتي أنزلته معك يُطاف حوله كما يُطاف حول عرشي ويُصلي حوله كما يُصلى حول عرشي ، ونزلت معه الملائكة فرفعوا قواعده من حجارة ، ثم وضع البيت عليه فكان آدم عليه السلام يطوف حوله كما يطوف حول العرش ويصلي عنده كما يصلى حول العرش فلما أغرق الله قوم نوح رفعه الله إلى السماء وبقيت قواعده [2].

وفي قوله " للناس " إشارة إلى العموم فالملة الحنيفية لا تخص قومًا دون آخرين ، فرسالة الإسلام رسالة عامة دعا إليها كل الأنبياء والمرسلين ، ومن شعائر هذه الملة قصد هذا البيت والصلاة فيه. وقوله " وضع للناس " في موضع جر صفة " ل "بيت " تخصص البيت بوجوب العبادة على من وضع لهم وتبين الغاية التي من أجلها وضع هذا البيت .

---

(١) براجع التحرير والتنوير ج٤ ص١١٢ .

(٢) أخبار مكة ج ١ ص ٤٠ ط دار الأندلس للنشر بيروت تحقيق رشدي صالح ملحس .

وقوله " للذي ببكة " خبر " إنّ " ودخلت اللام عليه لزيادة التأكيد على فضيلته وشرفه والإشارة بالاسم الموصول " الذي " لموصوف محذوف والتقدير للبيت الذي ببكة . قصد من تركه التفخيم والتعظيم كما يقول الإمام أبو السعود [1].

والمقصود من البيت المحذوف والمشار إليه بالموصول عين الكعبة المشرفة التي رفع قواعدها إبراهيم عليه السلام ،وإنما عدل عنها إلى التعريف بالموصول " الذي ببكة " لأن هذه الصلة صارت أشهر في تعينه عند السامعين؛ إذ ليس في مكة يومئذ بيت للعبادة غيره [2].

ثم جاء قوله " مباركا وهدى للعالمين " حالين من قوله" للذي ببكة " أي للذي استقر ببكة حاله كونه مباركا وهدى للعالمين وقيل حالين من الضمير في قوله " وضع للناس " أي وضعه الله للناس حال كونه مباركا وهدى للعالمين ، وهذان الحالان يؤكدان تخصيص " البيت " بالوصف بقوله " وضع للناس " أي أن الله سبحانه وتعالى حين وضع هذا البيت للناس وضعه مباركا وهدي للعالمين لأجل منفعتهم ؛ لأنه كثير النفع والبركة لكل من حجه أو اعتمره أو اعتكف به أو طاف حوله ، وذلك بمضاعفة الثواب وتكفير السيئات ، يساعد على تأكيد ذلك التعبير باسم المفعول "مباركا " من بارك الشيء إذا جعل له بركة، وهي زيادة الخير، وكذا التعبير بالمصدر " هدي " مبالغة ؛ لأنه سبب للهدى ليس لفئة من الناس بعينها ، بل هو هدى للعالمين [3].

---

(١) براجع تفسير أبي السعود ج٢ ص ١٦١ .

(٢) براجع التحرير والتنوير ج٤ ص ٢١٣ .

(٣) براجع تفسير أبي السعود ج ٢ ص ٣٦١ .

وقوله " فيه آيات بينات " الضمير يعود إلى البيت والجملة مستأنفة جيء بها بياناً وتفسيراً للهدى ، ولذا ساغ الفصل بينهما لما بينهما من كمال الاتصال، فلو عرفت جملة "فيه آيات بينات " من جملة" وهدى للعالمين " منزلة عطف البيان فقد أبانت السبب في كونه هدي للعالمين ، إذ فيه آيات بينات . منها: أمن الخائف واضمحلال الجبار علي كثرة الرمي ، وامتناع الطير من العلو عليه ، وانسئناء الوحش به ، وتعجيل العقوبة لمن انتهك فيه حرمة ، وإهلاك أصحاب الفيل [1].

وقوله " مقام إبراهيم " واقع موقع بدل البعض من الكل من قوله " فيه آيات بينات " أي المشاعر والمناسك كلها، ثم ذكر بعضها فقال " مقام إبراهيم " أي بعضها مقام إبراهيم . وأصل المقام أنه مفعل من القيام ، وهو أثر قدمي إبراهيم عليه السلام في الحجر الذي قام عليه عند بناء الكعبة ، أو الحجر الذي قام عليه عند غسل زوجة إسماعيل رأسه الشريف [2] . وقيل هو عطف بيان لقوله " فيه آيات بينات " وقد استشكل ذلك بقولهم . أن الآيات كثيرة ولا يصح تفسيرها بشيء واحد . ورد علي ذلك من وجوه :

الوجه الأول : أن مقام إبراهيم بمفرده آيات كثيرة لظهور شأنه وقوة دلالته علي قدرة الله .

الوجه الثاني : أن مقام إبراهيم اشتمل علي الآيات، لأن أثر القدم في الصخرة الصماء آية ، وغوصه فيها إلى الكعبين آية ، وإبقائه دون سائر آيات الأنبياء عليهم السلام آية ، وحفظه مع كثرة أعدائه من اليهود والنصارى والمشركين آية ، فثبت أن مقام إبراهيم عليه السلام آيات كثيرة .

---

(١) يراجع روح المعاني ج ٤ ص٦ وتفسير الرازي ج ٢ ص ١٢٨ .

(٢) يراجع تفسير الواحدي ج ١ ص ٢٣٤ ونظم الدرر ج ٢ ص ١٢٨ .

الوجه الثالث : أن قوله " من دخله كان آمنا " من بقية عطف البيان لأنه بقية تفسير الآيات ؛ كأنه قيل فيه آيات بينات مقام إبراهيم وأمن من دخله والاثنان في معنى الجمع . ويجوز أن تذكر هاتان الآيتان ويطوي ذكر غيرهما للدلالة علي تكاثر الآيات ،كأنه قيل : فيه آيات بينات مقام إبراهيم وأمن من دخله وكثير سواهما .

ومنهم من تمم الثلاثة فقال " مقام إبراهيم "و أن من دخله كان آمنا، وأن فرض علي الناس حجه، ثم حذف أن اختصارا [1] .

وعلي رأي من قال بعطف البيان يكون الفصل بين " فيه آيات بينات " وبين " مقام إبراهيم " لكمال الاتصال، لأن الجملة الثانية أزالت غموضا وإبهاما في الجملة الأولى ، كما أن الوصل بين جملة "مقام إبراهيم " وجملة " ومن دخله كان آمنا " للتوسط بين الكمالين لاتفاق الجملتين في الخبرية معنى وإن كانت الجملة الثانية شرطية لفظا ألا أنها في معنى الخبرية لأنها مكملة لبيان الآيات .

لكن ! قد يقال لماذا جاءت في ثوب الجملة الشرطية علي الرغم من ارتباطها بما قبلها معنى وأوثر الشرط على ما يمكن أن يقال " وآمن داخله " ؟ رد على ذلك الإمام البقاعي فقال : " وتحويل العبارة عن وآمن داخله"لأن هذا أدل علي المراد في تمكن الأمن . وفيه بشارة بدخول الجنة" [2] أي أن دلالة الشرط علي تمكن الأمن من داخله أكثر من التعبير بصيغة الخبر، لما في الشرط من ربط الشرط بالجزاء فيجعل الجزاء آكيد الوقوع بمجرد ترتبه علي فعل الشرط ، كما

---

(١) يراجع تفسير الرازي ج ٢ ص ١٦٤ وتفسير النسفي ج ١ ص ١٦٧ .

(٢) نظم الدرر ج ٢ ص ١٢٨ .

أن أسلوب الشرط يحدث عند المخاطب نوعًا من الانتباه والتيقظ لتشوقه لسماع الجزاء عند سماع فعل الشرط ، كما أن فيه بشارة بدخول الجنة الأن جزاء الشرط ترك على العموم فلم يقل مثلا " كان آمناً من كذا " وبذلك يفسح المجال لدوام الأمان بكل صوره وأشكاله في الدنيا والآخرة .

كما أن أسلوب الشرط هذا تأكيد على تحقق الأمن لكل من دخله عن طريق اشتماله على " كان " التي تدل على الماضي "ومن دخله كان آمناً " إشارة إلى تحقق الوقوع . وزيادة على ذلك مجيء مادة الأمن على صيغة اسم الفاعل " آمناً " دليلا على الثبوت والدوام .

وقوله : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ﴾ اللام في " لله " للإيجاب والإلزام أو كما يقولون " لام الاستحقاق " لتؤكد حق الله على الناس في أداء فريضة الحج ، يزيد تأكيد هذا الحق حرف الاستعلاء " على" في قوله "على الناس " الذي يدل على تقرر حقه في ذمة المخرور لها . وهي من أوكد ألفاظ الوجوب عند العرب . فإذا قال العربي لفلانٍ عليّ كذا فقد أكده وأوجبه، فذكر الله الحج بأبلغ الألفاظ وأوجبها تأكيداً لحقه وتعظيماً لحرمته [1] .

يزيد في تأكيد فريضة الحج ووجوبه إيراد هذا الأمر في صورة الخبر تقريراً لأمرٍ واقعٍ وتنبيهًا لحالٍ كائنٍ وبعداً بالمخاطب عن صيغة الأمر المباشر التي تستثقلها النفوس .كما أن ورود الأمر بالحج في صورة الخبر يبرزه في صورة الجملة الاسمية التي يطبعها صورة من صور التأكيد التي يلجأ إليها المتكلم عند حديثه عن أمر هام .

---

(١) براجع تفسير القرطبي ج ٢ ص ١٤٢ - ط الهيئة المصرية العامة للكتاب - وتفسير المنار ج ٤ ص ٢٢ .

كما أن في ذكر الناس في قوله " على الناس " خروجًا على مقتضى الظاهر حيث أظهر في موضع الإضمار ؛ لأن لفظ الناس ذكر في الآية السابقة في قوله " أول بيت وضع للناس " وكان مقتضى الظاهر أن يأتي هنا بضمير يعود إلى المذكور . ولكن أظهر في موضع الإضمار دلالة على الإحاطة والشمول ، ليعم فريضة الحج جميع الناس ولئلا يدعي العرب أو غيرهم خصوصيتهم به [2] .

كما أنه أظهر في موضع الإضمار في قوله " حج البيت " أي زيارته وذلك تنصيصًا عليه وتنويهاً بذكره وتفخيماً لقدره . وعبر بـ"حج البيت" بدلاً من زيارة الكعبة جرياً على عادة العرب من زيارة البيوت ومعاهد الأحباب وأطلالهم وأعظم ما يعبر به عن الزيارة عندهم الحج [3] وأل في البيت للعهد أي حج البيت المعهود .

وقوله " من استطاع إليه سبيلا " واقع موقع بدل البعض من الكل من قوله " لله على الناس " لتقييد حال الوجوب .

يقول الواحدي " عمم الإيجاب ثم خص وأبدل من الناس فقال : " من استطاع إليه سبيلا " [4] . وهذا التخصيص بعد تعميم الإيجاب فيه إيضاح بعد إبهام حيث رفع الحرج عن غير المستطيع الذي كان داخلا في عموم الإيجاب . وهذا يحمل على الشكر لما فيه من التخفيف بعد التشديد [5] .

وهذا التخصيص بعد التعميم يحمل الفصل بين الجنسين واحداً لما بينهما من كمال الاتصال فوقوع الثانية من الأول موقع بدل البعض من الكل .

---

(١) براجع نظم الدرر ج ٢ ص ١٢٨ .
(٢) براجع نظم الدرر ج ٢ ص ١٢٨ .
(٣) التفسير الواضح ج ٢ ص ٢٢٤ - ط دار إحياء التراث العربي - الطبعة الثانية .
(٤) براجع نظم الدرر ج ٢ ص ١٢٨ .

وهذا التخفيف الذي في قوله " من استطاع إليه سبيلا " لجعل الذي لا يحج البيت مع الاستطاعة في موقف العاصي المتمرد على أوامر الله، ولذلك جاء قوله : "ومن كفر فإن الله غني عن العالمين " في مقابل" ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا " ليكون التقدير . ومن لم يحجه مع الاستطاعة كفر بالنعمة . ومن كفر بالنعمة فإن الله غني عن العالمين فقد وضع " من كفر " موضع من لم يحج مع الاستطاعة تأكيداً للوجوب وتغليظاً على تاركه .

وعلي ذلك يكون في الآية نوع بليغ من الإيجاز وهو الإيجاز بالحذف . وتكمن بلاغة الإيجاز بالحذف في كونه "يترك علي أطراف المعاني ظلالاً خفيفة يشتغل بها الذهن ويعمل فيها الخيال حتى تبرز وتسع ثم تشعب إلى معاني أخرى بتحميلها اللفظ" (١) .

وفي قوله " سبيلا " مجاز مرسل علاقته اللزومية ؛ حيث عبر بالملزوم وهو السبيل - الذي هو في أصل اللغة الطريقة - وأراد اللازم وهو مؤن الحج وما يحتاجه المكلف في أداء الفريضة من مال وقدرة جسدية علي السفر وأداء المناسك وسبيل القريب من البيت سهل ميسور وأما البعيد فسبيله الزاد والراحلة والقدرة علي السفر (٢) .

ولتكمن بلاغة المجاز المرسل هنا في اختصار الكلام وإيجازه في كلمة واحدة أغنت عن ذكر كل ما يحتاجه من قصد الحج من مؤن وزاد وقوة تبلغه السفر إلى البيت العتيق وعلي ذلك يكون حج البيت فريضة علي كل مستطيع ملك الزاد

---

(١) كتاب فن الاستعارة دراسة تحليلية في البلاغة والنقد مع التطبيق على الأدب العباسي لسائف أحمد الصاوي ص٣٣٥ ط دار الهيئة المصرية العامة للكتاب .

(٢) يراجع التحرير والتنوير ج ٤ ص٢٢ .

والراحلة والقدرة علي مشقة السفر، وقد أكد الحج في الآية من وجوه :

الأول : الدلالة علي وجوبه بصيغة الخبر وإبرازه في صورة الاسمية الدالة علي الثبوت والاستمرار والتي هي صورة التأكيد .

الثاني : إيراده علي وجه يفيد أنه حق واجب لله تعالى في رقاب الناس عن طريق لام الاستحقاق في " لله " وحرف الجر علي " على الناس " التي هي عند العرب من أوكد الحروف .

الثالث : تعميم الحكم أولا ثم تخصيصه ثانيا، فإنه كالإيضاح بعد الإبهام وكشية وتكرار المراد .

الرابع : تسمية ترك الحج كفراً، من حيث إنه فعل الكفرة .

الخامس : ذكر الاستغناء؛ فإنه في هذا الموضع يدل علي المقت والخذلان لتارك الحج مع الاستطاعة . وقوله " عن العالمين " يؤكد ذلك لما فيه من مبالغة التعميم والدلالة علي الاستغناء عنه بالبرهان والإشعار بعظم السخط (١) .

٢- جعله أمناً وأماناً للناس جميعاً :

قال تعالي : ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾ البقرة ١٢٥ .

الآية هنا واردة في سياق مناقب سيدنا إبراهيم معطوفة على الآية السابقة التي ذكرت أن من مناقب سيدنا إبراهيم أنه ابتلى بكلمات من قبل الله تعالى فأتمها على أكمل وجه ، وكان من مناقبه أيضاً أن الله عهد إليه ببناء هذا البيت وتطهيره

---

(١) يراجع تفسير الشعراوي ج٢ ص ٧٠ - ط دار إحياء الكتب العربية .

من النجس والأوثان وجعله شعاراً للتوحيد والعبادة الخالصة ، وهذا كله من باب التعريض [1] بالمشركين من العرب الذين يزعمون أنهم أفضل ذرية إبراهيم، وأنهم يتعلقون بملته ، وأنهم زرع إسماعيل وسدنة البيت الذي بناه إن كانوا كذلك فلماذا لا يتبعون دعوة النبي ﷺ وهو على ملة أبيه إبراهيم الذي يزعمون أنهم على ملته ؟! .

وقد استهلت الآية بالتذكير بنعمة الله على هؤلاء العرب حيث جعلهم في جوار البيت الحرام الذي جعله سبب أمن وأمان لهم ومرجعاً تهفو إليه نفوس الناس جميعاً فقال :

﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا ﴾ وإذ هنا ظرفية متعلقة بمضمر مقدم لتقديره – اذكر – أو اذكروا – وقت كذا أي اذكر لهم يا محمد أو اذكروا وقت جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا. فتكون الجملة معطوفة على ما قبلها وهو قوله : " وإذ ابتلى إبراهيم ربه ... " والجامع للعطف هنا الاتحاد في المقصد ، حيث تعديد بقية مناقب إبراهيم عليه السلام الذي بنى البيت الحرام الذي هم سدنته وحراسه – وقد عطفت على " وإذ ابتلى ... " من باب عطف القصة على القصة ، وقد أعيدت " إذ " للتنبيه على استقلال القصة ، وأنها جديرة بأن تعد منقبة منفردة بنفسها ضمن مناقب سيدنا إبراهيم دون الالتفات إلى الترتيب ؛ إذ المقام مقام ذكر الفضائل والواو لا تفيد ترتيباً [2].

---

(١) التعريض في اللغة خلاف التصريح ، يقال عرّض لي فلان تعريضاً ، والمعاريض : التورية بالشيء عن الشيء . راجع : لسان العرب – مادة (عرض) . وفي اصطلاح البلاغيين : أن تذكر شيئاً تدل به على شيء لم تذكره ، فالمعنى التعريضي مقصود من الكلام إشارة وسياقاً لا استعمالاً . يراجع : حاشية السيد الشريف على المطول ص ٤١٤ .

(٢) يراجع دلائل الإعجاز للشيخ عبدالقاهر ص ٢٤٦ و يراجع روح المعاني جـ١ ص ٣٧٣ والتحرير والتنوير جـ١ ص ٧٠٨ .

وذكر فضائل إبراهيم عليه السلام يتضمن التذكير بنعمة الله عليهم حيث جعلهم في جوار هذا البيت الآمن المستقر، ومن الإمعان في تذكيرهم بالنعمة التعبير بقوله " جعلنا " حيث تقتضي صيغة " جعل " التصيير والانتقال من حالة إلى حالة ، تقول : جعلت الطين خزفاً أي صيرته إياه [1] وجعل البيت أمنا يشير إلى حالة المكان قبل بناء إبراهيم عليه السلام، حيث كان مكاناً قفراً موحشاً لا يصلح أن يعيش فيه إنسان ، ثم شاءت إرادته سبحانه أن يتحول إلى مكان آمن تحن إليه الأفئدة ، ويأمن فيه الخائف ، حتى الطير والحيوان ، وهذه منّة كبرى من الله تعالى على أهل هذا المكان المبارك .

يزيد في إبراز هذه المنة إضافة الجعل إلى الله تعالى بضمير نا الفاعلين للفاعل المعظم نفسه العائد إليه سبحانه ، مما يؤكد الثقة ويزيد من الطمأنينة ، حيث إضافة النعمة إلى منعمها ومالكها والمتصرف فيها ، فتطمئن نفس الزائر لهذا البيت أو المقيم حوله ؛ لأنه في كنف القوي المتفضل بنعمة الأمن المالك لها دون سواه .

ثم يرتقي القرآن درجة أخرى في التعبير عن نعمة الأمن الكائنة في هذا المكان باستخدام لفظ البيت بقوله : " وإذ جعلنا البيت " إذ الارتباط الوثيق بين الإحساس بالأمن والشعور بالسكن النفسي وبين لفظ البيت ،فالنفس البشرية لا تشعر بالأمن الكامل والسكن النفسي المستقر إلا في البيت الذي يسكنه ، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا ﴾ من سورة النحل ٨٠ ، أي مكان أمن واستقرار نفسي .

---

(١)) يراجع لسان العرب جـ ١١ ص١١١ مادة ج ع ل دار صادر الطبعة الأولى .

يعبر عن الحرم بالبيت يشغل هذا الشعور الإنساني في إحساس بالأمن والاستقرار من الصورة الصغيرة التي يعيشها داخل بيته إلى إحساسه بالأمن الأعظم الذي يشعر به في البيت الحرام . وكيف لا يأمن في بيت الملك المحروس جنابه

والبيت في الأصل اسم جنس للمكان المتخذ مسكناً لواحد أو عدد من الناس أي غرض من الأغراض ، لكنه صار علماً بالغلبة على الكعبة أو المسجد الحرام كما غلب اسم النجم على الثريا . " وأل " فيه عهدية لكثرة عهد الناس بإطلاق هذا الاسم على ذلك المكان [1] .

وقوله " مثابة للناس وأمناً " أي مرجعاً وملاذاً آمناً يعودون إليه كل حين لما يجدون في صدورهم من الحنين إليه ؛ لأنه صار رمزاً للأمان والإحساس بالسكن والاستقرار النفسي، فالنفس البشرية متى زارته مرة حنت إليه واشتاقت لمعاودة الزيارة مرات ، لذلك ناسب في ذلك التعبير بـ " مثابة " التي هي على صيغة المبالغة التي تدل على دوام المعاودة،فأصل مثابة مَثْوبة على وزن مَفْعَلة مصدر ميمي أو اسم مكان [2] .

والمراد بالناس في قوله " للناس " سكان مكة من ذرية إسماعيل ومن يجاورهم ويدخل في حلفهم ، "فأل" فيه للجنس المعهود . واللام فيه متعلقة بمحذوف وقع صفة لمثابة، أي مثابة كائنة للناس، أو متعلقة بجعلنا : أي جعلناه لأجل الناس [3] .

---

(١) راجع التحرير والتنوير ج ١ ص ٧٠٨ .

(٢) راجع نظم الدرر ج١ ص ٢٣٩ والجدول في إعراب القرآن وصرفه وبيانه جـ١ ص ٢٥٨ .

(٣) راجع تفسير أبي السعود ج ١ ص ١٥٧ والتحرير والتنوير ج ١ ص ٧٠٨ .

هذا وإن كان الجنس في أل يعود على سكان هذا المكان إلا أنه يدخل فيه كل من حلّ بهذا البيت زائراً أو حاجاً أو معتمراً أو كل من لاذ به ، حتى أن الطير والحيوان يأمن على نفسه في هذا البيت.

وقوله " وأمناً " أي آمناً ، وسر التعبير بالمصدر عن اسم الفاعل المبالغة في وصف الأمن ، ويمكن أن يكون على تقدير مضاف : أي ذا أمن ، فيكون فيه إيجاز بالحذف ، ويمكن أن يكون على الإسناد المجازي : أي آمناً من حجه من عذاب الآخرة ، أو آمناً كل من دخله ،ولذلك كانوا في الجاهلية يرى الرجل قاتل أبيه في الحرم فلا يتعرض له، وهذا شيء توارثوه من زمن إسماعيل عليه السلام [1] .

والإسناد المجازي في قوله " وأمناً " إسناد عقلي أو مجازي عقلي ؛ إذ أصل الكلام : وإذ جعلنا البيت آمناً على وزن اسم الفاعل، وعبر عنه بالمصدر مبالغة في إظهار الأمن، وفاعل" آمناً " ضمير يعود على البيت والتقدير آمناً هو . وهو في الحقيقة ليس هو الآمن إنما هو مأمون فيه، والآمن هو أهله أو زائره ،فتجوّز عن الحقيقة وأسند الأمن إلى البيت لتلبسه به مبالغة في إظهار شمول الأمن لكل من في المكان ، حتى أصبح المكان نفسه في أمن وأمان ، وتسمى هذه العلاقة المفعولية : أي أن الفاعل المجازي كان أصله مفعولاً،أو تكون العلاقة المكانية فالحرم مكان للأمن .

وعلى كلا التقديرين سواء أكان بالحذف – على تقدير مضاف محذوف – والمعنى بيتاً ذا أمن – أو على التجوز في الإسناد – و المعنى آمناً أهله – فالمعنى يدور حول تذكير الله تعالى بمنقبة هذا البيت ، والمنّة على ساكنيه بنعمة الأمن والاطمئنان ، ويدخل ضمنا كل من زاره أو حجه ، أو اعتمر فيه .

وقوله : ﴿ وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾ إما معطوف على " جعلنا " على تقدير قول محذوف والتقدير : وقلنا لهم اتخذوا ، أو أنه حال من

---

(١) راجع روح المعاني ج ١ ص ٣٧٨ وراجع تفسير أبي السعود ج١ ص ١٥٧ .

فاعل جعلنا أي قائلين لهم اتخذوا .وإما على الاستئناف فتكون الجملة كلاماً مستأنفاً مخاطباً به النبي ﷺ وأمته .

وقد رجح الإمام أبو السعود [1] الرأي الأول وقال انه الأليق بجزالة النظم الكريم ، والأمر سواء أكان صريحاً أو مفهوماً من الحكاية فهو محمول على الاستحباب ، وهذا أيضاً من التذكير بمناقب سيدنا إبراهيم الذي جعل سبباً في بناء هذا البيت الذي هو زمر الأمن والاستقرار لكل من حل به .

وقد قرئ " واتخذوا " بصيغة الماضي عطفاً على جعلنا فيكون هذا الاتخاذ من آثار ذلك الجعل ، والمعنى فأقمنا الناس أن يتخذوا من مقام إبراهيم مصلى، وهو أيضاً من التذكير بالنعم .

ومن في قوله " من مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى " إما تبعيضية ، أو بمعنى في ، وقد أورد الإمام الآلوسي رأياً للقفال - أراه هو الأليق بالمقام - فقال : " هي مثل " اتخذت من فلان صديقاً وأعطاني الله من فلان أخاً صالحاً دخلت ليان المتخذ الموهوب وغيره" [2] . فوصف " من " بكونها للبيان والتمييز هو الأليق ببلاغة النظم ، إذ ان السياق هو سياق التذكير بالنعم . و التعديد لمناقب سيدنا إبراهيم عليه السلام .

والمقام : هو موضع القيام وهو الحجر الذي كان عليه إبراهيم عليه السلام حين دعا الناس إلى الحج أو حين رفع قواعد البيت . ويمكن أن يكون المراد بالمقام هو الموضع الذي كان فيه هذا الحجر ، وهذا يناسب ما ورد أن الحجر الذي ارتفع عليه إبراهيم عليه السلام كان ملزقاً بالكعبة وأخره عمر بن الخطاب رضي الله عنه

(١) يراجع تفسير أبي السعود جـ١ ص ١٥٧ .
(٢) يراجع روح المعاني للآلوسي جـ١ ص ٣٧٩ .

ليكون المقصود بالمقام المكان الذي وقف فيه على هذا الحجر ، وهذا أيضاً يناسب إرادة مصلى ، فالمكان كله حول هذا الحجر يمكن أن يكون موضعاً للصلاة .

ثم يمضي السياق في تعديد مناقب إبراهيم عليه السلام فيخبر بما كان من أمر له حين عهد إليه المولى عز وجل ببناء البيت وتطهيره فيقول : ﴿ وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾ .

والعهد هنا هو الأمر المأكد والوصية بالشيء [1] . فالعهد إذا تعدى بإلى يكون بمعنى الوصية والأمر [2] . وإضافة العهد إليه سبحانه وتعالى تقتضي التشريف والتعظيم لأمر هذا العهد ولأمر إبراهيم عليه السلام ، وقد عطف على إبراهيم إسماعيل لأنه كان يساعده في البناء .

" أن طَهِّرَا بَيْتِيَ " أن هنا تفسيرية ، لأن العهد متضمن لمعنى القول دون حروفه، وإضافة البيت إليه سبحانه للتشريف والتعظيم . وتوجيه الأمر بالتطهير هنا إليهما عليهما السلام لا يتنافى مع ما جاء في سورة الحج في تخصيصه بإبراهيم عليه السلام في قوله " وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت " لأن ذلك وقع قبل البناء [3] .

والمراد من " التطهير " البناء والتأسيس على الطهارة والتوحيد ، أو تطهيره من النجاسات الحسية والمعنوية ، بأن يحفظ من القاذورات والأوساخ ومما لا يليق بالمقصد من بنائه من الأصنام والأفعال المنافية للحق، كالعدوان والصفات المنافية للمروءة ، كالطواف عرايا دون ثياب [4] .

(١) يراجع لسان العرب ج ٣ ص ٣١١ .
(٢) يراجع روح المعاني ج ١ ص ٣٨٠ وتفسير الثعالبي ج١ ص١٠٦ ط مؤسسة الأعلمي بيروت .
(٣) يراجع تفسير أبي السعود ج ١ ص ١٥٧ - ط دار الفكر - بيروت .
(٤) يراجع التحرير والتنوير ج١ ص ٧١٢ .

ثم تخلص الآية إلى علة الأمر بالتطهير، وهي أن يكون شعاراً للعبادة الخالصة فقال : ﴿ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾.

فاللام في " للطائفين " تعليلية أي لأجل الطائفين و ... " والمراد " بالطائفين " الطائفون حول هذا البيت . "و العاكفين " المقيمون حوله والمجاورون له من قوله عكف عنده أي أقام ولم يتحول [1].

والركع السجود : هم المصلون . وفي آية الحج ﴿ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾ فذكر القيام مع الركوع والسجود وهي هيئات المصلي .

فكأنه قال للطائفين والعاكفين والمصلين . وقد أوثر ذكر هيئات الصلاة دون ذكر لفظ الصلاة للتنويع وبيان كثرة أشكال العبادة حول هذا البيت، فالذي ينظر إلى العباد حول البيت يرى صورة متناغمة من ألوان التذلل والتعبد لرب هذا البيت ، ما بين طائف رافع يديه يطلب المغفرة ، وما بين راكع متذلل بين يدي خالقه ، وما بين ساجد يوجهه على الأرض إعلاناً للطاعة والخشوع . فالأشكال متنوعة لكن الغاية واحدة؛ وهي إفراده تعالى بالعبادة والطاعة والذل .

وقد جاء بواو العطف بين الطائفين والعاكفين لاختلاف الهيئتين، وترك الواو بين الركع السجود ؛ لأنهما وصفين لعبادة واحدة وهي الصلاة، ولتقاربهما ذواتا وزمانا [2] ؛ كذا جاءت الواو بين جمل الآية كلها لتصل بينها ؛ لأن هذه الجمل مختلفة في الخبرية لفظاً ومعنى ؛ وهذا ما يسمى بالتوسط بين الكمالين .

وقد جمع الطائف والعاكف جمع مذكر سالم، وجمع الراكع والساجد جمع تكسير تفنناً في الكلام وبعداً عن تكرار الصيغة أكثر من مرة . كما خولف

---

(١) يراجع الكشاف ج١ ص ٣١٠ – ط دار الفكر ، وزاد المسير في علم التفسير ج ١ ص ١٤١ ط المكتب الإسلامي بيروت الطبعة الثالثة ١٤٠٤ هـ .

(٢) يراجع تفسير أبي السعود ج ١ ص ١٥٨ .

بين الركع والسجود في الجمع أيضاً زيادة في الثناء ، ولأن الساجد يمكن أن يجمع على سُجَّد [1].

وهكذا أذن الله تعالى لإبراهيم عليه السلام بتطهير البيت من النجاسات الحسية والمعنوية ليكون هذا البيت شعاراً للتوحيد على مدي الأزمان ، وليكون حصن أمن وأمان لكل المخلوقات .

ثم يأتي بعد ذلك بيان آخر يعلل سبب جعل البيت الحرام حصن الأمان للمخلوقات وهو ما نراه في قوله تعالى : ﴿ جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِّلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ آية ٩٧ سورة المائدة .

وهنا يقول الإمام البقاعي : " ولما كان الإحرام وتحريم الصيد فيه إنما هو لقصد تعظيم الكعبة بين الله حكمة ذلك ، وأنه كما جعل الحرم والإحرام سبباً لأمن الوحش والطير جعله سبباً لأمن الناس وسبباً لحصول السعادة دنيا وأخرى قال مستأنفا بيانا لحكمة المنع في أول السورة من استحلال من يقصدها للزيارة " جعل الله الكعبة البيت الحرام " [2].

وعلي ذلك يكون سبب الفصل لهذه الآية عن سابقتها هو الاستئناف البياني أو شبه كمال الاتصال لوقوعها موقع الجواب عن سؤال اقتضاه الكلام السابق عن علة تحريم التعرض لأي شيء يتعلق بالبيت الحرام .

---

(١) يراجع التحرير والتنوير ج١ ص ٧١٢ .

(٢) نظم الدرر ج٢ ص ٥٤٣ .

يقول الشيخ الطاهر بن عاشور الآية " استئناف بياني ؛ لأنه يحصل به جواب عما يخطر في نفس السامع من البحث عن حكمة تحريم الصيد في الحرم وفي حال الإحرام بأن ذلك من تعظيم شأن الكعبة التي حرمت أرض الحرم لأجل تعظيمها وتذكير بنعمة الله علي سكانه بما جعل لهم الأمن في علاقتها وشعائرها "[1].

وجعل هنا في قوله ﴿ جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ ﴾ إما أن تكون بمعنى الإيجاد فتتعدى إلى مفعول واحد، فيكون المعنى أوجد الله الكعبة أي أمر خليله بإيجادها لتكون قياماً للناس ويكون قوله " قياماً للناس" حال أي أوجدها لتكون قياماً للناس فهي حال مقدرة .

وإما أن تكون جعل بمعنى صيّر فتتعدي إلى مفعولين ؛ فتكون" قياماً للناس " المفعول الثاني والمعنى : أن الكعبة موجودة بيت عبادة فصيّرها قياماً للناس لطفاً بأهلها وتسليهم . وكلا المعنيين صالح هنا [2].

وإظهار المسند إليه في قوله " جعل الله " وهو لفظ الجلالة ، وإسناد الفعل جعل إليه وإيقاعه علي " الكعبة البيت الحرام " فيه من إضفاء للهيبة والجلال علي المفعول به " الكعبة " بما يتلاءم مع جلال وعظمة المصيّر سبحانه وتعالى . فهي مستمدة هيبتها وجلالها من عظمة خالقها، فوجب علي كل من قصدها أو حلّ في حرمها إجلالها واحترام شعائرها .

ومجيء لفظ " البيت الحرام " بعد " الكعبة " عطف بيان للمدح والتعظيم وليس للإيضاح ورفع الإبهام ؛ فالأصل في العطف البيان أن يكون كالصفة في

(١) التحرير والتنوير ج٧ ص٥٤ .
(٢) المرجع السابق نفس الجزء والصفحة .

إيضاح متبوعه [1] . لكن لما كان اسم الكعبة مساوياً للبيت الحرام في الدلالة علي هذا البيت تعين أن يكون عطف البيان هنا للتعظيم والمدح ؛ ولذا يقول الإمام السيوطي " وقد يأتي عطف البيان لمجرد المدح بلا إيضاح ومنه قوله تعالى " الكعبة البيت الحرام " والبيت الحرام عطف بيان للمدح لا للإيضاح "[2].

وقيل : مجيء عطف البيان هنا للتوضيح والتبيين لأنه كان لخثعم - قبيلة عربية - بيت يسمونه الكعبة اليمانية [3].

وقوله : " ﴿ قِيَامًا لِّلنَّاسِ ﴾ أي انتعاشاً لهم في أمر دينهم ودنياهم ، ونهوضاً إلى أغراضهم ومقاصدهم في معايشهم ومعادهم ، لما يتم لهم من أمر حجهم وعمرتهم وتجارتهم وأنواع منافعهم [4].

والقيام في الأصل مصدر قام إذا استقل علي رجليه ، وهو مستعار هنا لتدبير المصالح وإصلاح شأنها ؛ لأن شأن من يعمل عملا مهماً أن ينهض له . فقد شبه هنا كون الكعبة سبباً لتدبير مصالحهم الدنيوية والأخروية بمن يقوم للعمل المهم ليصلح شأنه ، ثم استعار القيام للتدبير والإصلاح وذلك علي سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية .

كما أن في إسناد هذا القيام للكعبة مجازاً عقلياً علاقته السببية، حيث أسند الشيء لما هو سبب فيه والقصد منه المبالغة . لأن الكعبة لما جعلها الله سبباً في أحكام شرعية سابقة كان فيها صلاح أهل مكة وغيرهم من العرب وقامت بها مصالحهم جعلت الكعبة كأنها هي القائمة لهم . و" أل " في الناس في قوله " قياماً

(١) يراجع : مفتاح العلوم للسكاكي ص ١٤٢ والإيضاح ص ١٨٧ - ت د/ عبد الحميد هنداوي
(٢) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ج٢ ص ١٩٠ ط دار الفرات الطبعة الثالثة ١٤٠٨هـ .
(٣) يراجع روح المعاني ج٧ ص ٣٥ .
(٤) يراجع الكشاف للزمخشري ج١ ص ٦٤٦ .

للناس " عهدية والمراد ناس معهودة وهم العرب ، لأنهم الذين انتفعوا بالكعبة وشعائرها دون غيرهم من الأمم كالفرس والروم [1] .

وقوله : ﴿ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ﴾ معطوف على الكعبة أي الشهر الحرام والهدي والقلائد كذلك أي قياما للناس لأنها من الأشياء التي ينتفع بها الحجاج وغيرهم فهي قيام لهم .

﴿ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ ﴾ أل فيه عهدية أي الذي يؤدون فيه الحج وهو شهر ذي الحجة وقيل للجنس أي الأشهر الحرام .

وهذا العطف من باب عطف الخاص على العام باعتبار كون الكعبة أريد بها كل ما يشمل علاقتها وتوابعها [2] .

وقوله : ﴿ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ الإشارة في ذلك إلى الجعل المذكور ومحله النصب بفعل مقدر وهو " العامل " في اللام بعده أي شرع ذلك لتعلموا أن الله .." واللام بعده هي لام التعليل ، ولذا فإن توسط اسم الإشارة بين الكلامين لزيادة الربط مع التنبيه على التعظيم للمشار إليه ، وهو الجعل ؛ فتوسط اسم الإشارة هنا شبيه بتوسط ضمير الفصل لإفادة التعظيم وتأكيد الربط .وليس الإشارة إلا للجعل المأخوذ من " جعل " والمعنى جعل الله الكعبة قياما للناس ، لأجل أن تعلموا أن الله يعلم ما في السماوات وما في الأرض ؛ فجعل " الكعبة قياما " مقصود منه صلاح الناس بادئ ذي بدء ، ثم مقصود منه علم الناس بأن الله عليم ، وقد تكون علل أخري والقصر على ذلك لشدة الاهتمام بها " [3] .

---

(١) براجع التحرير والتنوير ج٧ ص ٥٦ .

(٢) براجع روح المعاني ج٦ ص ٣٦ والتحرير والتنوير ج٧ ص ٥٨ .

(٣) براجع تفسير أبي السعود ج٢ ص ٣٦ . والتحرير والتنوير ج٧ ص٥٩ .

والمقصود قوله " يعلم ما في السماوات وما في الأرض " أنه يعلمه قبل وقوعه ؛ لأنه جعل التعليل متعلقا بجعل الكعبة وما تبعها .

ووجه دلالة : ﴿ جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ ...﴾ وما عطف عليها على كونه يعلم ما في السماوات وما في الأرض ،أنه تعالى أمر ببناء الكعبة في زمن إبراهيم فلم يقدر أحد يومئذ إلا أن إبراهيم اتخذها مسجدا ،والناس يومئذ قليل ، ثم إن الله أمر بحج الكعبة وبحرمة حرمها ، وحرمة القاصدين إليها، ووقت لهم أشهراً معلومة . فإذا في جميع ذلك صلاح عظيم للناس ، ودفع لمضار كثيرة عن العرب . فكانت الكعبة سببًا في بقائهم حتى جاء الإسلام . فلا شك أن الذي أمر ببنائها قد علم أن ستكون هنالك أمة كثيرة ، وأن ستحتاج تلك الأمة لحاجة ببناء الكعبة [1] .

وقوله : ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ من باب ذكر العام بعد الخاص فقد ذكر علمه بكل شيء للإحاطة بعد تخصيصه العلم بما في السماوات والأرض ، وقدم الخاص على العام ؛ لأنه كالدليل على ما بعده . وجاء الوصل بينهما بالواو لوجود الجهة الجامعة ، لاشتراكهما في المسند إليه . كما أن هناك تلازماً بين المسند في كلا الجملتين تلازم الخصوص مع العموم .

إذن فالكعبة هي الأمان لكل خائف وركن قوي لكل ضعيف ،جعلها الله عز وجل سبب عز وأمان لأهل مكة وساكن الحرم منذ أن بناها إبراهيم عليه السلام وحتى في عصر جاهليتهم وإقامة الأصنام حولها وعبادة الأوثان والأحجار ، وما ذاك إلا لأنهم حلوا في حرمها ، وتولوا شيوخاً حول بيت الله الحرام ، فنالوا نعمة الأمن والأمان في الوقت الذي كانت فيه القبائل والأمم في صراع وقتال شديد .

---

(١) التحرير والتنوير ج٧ ص٦٠ .

ولذا فقد عاب الله عز وجل على أهل مكة عدم استجابتهم للدعوة النبي ﷺ إلى الهدى متعللين بأنهم إن آمنوا معه وهم قلة بين الأمم أغارت عليهم الأمم وتخطفتهم ؛ فرد الله عليهم بأنه حماهم بالحرم وقدسيته على الرغم من أنهم كانوا كفار يعبدون الأوثان حول بيته ! أفلا يحميهم إذا دخلوا في عبادة الله وتركوا عبادة الأوثان والأصنام ؟! تري ذلك من خلال قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ سورة القصص ٥٧ .

يقول ابن كثير في تفسير هذه الآية : " يقول الله تعالى مخبراً عن اعتذار بعض الكفار في عدم اتباع الهدى حيث قالوا لرسول الله ﷺ " إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا " أي نخشى إن اتبعنا ما جئت به من الهدى وخالفنا من حولنا من أحياء العرب المشركين أن يقصدونا بالأذى والمحاربة ويتخطفونا أينما كنا ؛ فقال الله تعالى مجيبا لهم " أو لم نمكن لهم حرما آمنا " يعني الذي اعتذروا به كذب وباطل ؛ لأن الله جعلهم في بلد أمين وحرم معظم آمن منذ وضع ، فكيف يكون هذا الحرم أمناً لهم في حال كفرهم وشركهم ولا يكون أمناً لهم وقد أسلموا وتابعو الحق ؟ ! " [1] .

والآية هنا معطوفة علي ما سبق من حكاية حالهم مع النبي ﷺ حيث طلبوا منه من الآيات مثل ما أوتى موسى في قوله : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ ﴾ ٤٨ سورة القصص ، فالواو في قوله : " وقالوا إن اتبع الهدى " عاطفة، عطفت مجموعة جمل علي مجموعة أخرى ، وهو ما

(١) تفسير ابن كثير ج٣ ص ٣٩٥ .

يسمى بعطف القصة علي القصة ؛ والغرض من ذلك التعجيب من حالهم وبيان أن عدم إيمانهم إنما هو اتباع لأهوائهم .

يقول الإمام البقاعي : " ولما عجب من حال قريش في طلبهم من الآيات مثل ما أوتي موسى عليه السلام ثم كفرهم به ولما هو أعظم منه .. قال عاطفاً علي " قالوا لولا أوتي مثلما أوتي موسى " و " وقالوا إن نتبع ..... " [1] .

فالحكاية هنا لقولهم " تعجيب من حالهم وبيان لكذب اعتذارهم . فهم كما لم يفلحوا حينما طلبوا منه من الآيات المعجزة مثل الآيات التي جاء بها موسى عليه السلام . اختلقوا عذراً آخر وادعوا أنهم إن آمنوا معه تخطفهم العرب وتخطفهم الأمم من حولهم .

ثم انظر إلى إصرارهم علي الكفر، وأن مجرد التفكير في الإيمان غير وارد عندهم تجده ظاهراً جلياً من خلال قولهم " إن نتبع الهدى معك " واختيار إن - التي تفيد الشك - دون إذا ، ليبان أن أمر الإيمان غير مقطوع به يؤكدون ذلك بقولهم " نتبع " بدلا من نؤمن . وكأنهم يقولون أن مجرد الإتباع لك ولو بغير اقتناع منا - إن حصل منا ذلك - يعرضنا للتخطف .

لكنّ الحق أبلج يجلجل صوته داخل نفوسهم حتى وإن أصروا علي معاندته عتواً واستكباراً منهم ويظهر علي ألسنتهم وإن لم يقصدوه ، فهم يعلمون أنّ النبي ﷺ علي الحق . ولذلك قالوا " إن نتبع الهدى معك " فهم متأكدون أنه الهدى والنور . وأن الرسول صلي الله عليه وسلم علي رأس المهديين بهذا النور ولذلك قالوا " معك " أي إن شاركناك في هذا الهدى نتخطف من أرضنا .

(١) نظم الدرر ج٥ ص ٥٠٢ .

ومع علمهم بالحق والهدى يؤكدون إصرارهم علي الكفر واعترافهم الإيمان عن طريق التهويل والمبالغة في جزاء الشرط المترتب علي مجرد الاتباع ، " إن نتبع الهدى معك نتخطف " فالتخطف مبالغة في الخطف و بناء الصيغة للمجهول يوحي بكثرة من يرصدونهم للخطف ، فهم لا يعلمون من أي جهة يؤتون ولا من يقوم بخطفهم .

والتخطف هو انتزاع الشيء بقوة وسرعة ، وهو هنا مستعار للغلبة السريعة لأن الغلبة شبه الأخذ فإذا كانت سريعة أشبهت الخطف [1] . فقد شبه ضعفهم أمام أعدائهم وشدة غلبة عدوهم لهم بالخطف بجامع الأخذ بسرعة ، ثم استعير الخطف للغلبة السريعة ،ثم اشتق من الخطف تتخطف علي سبيل الاستعارة التصريحية التبعية .

وبعد هذا الاعتذار الواهي تولى الله عز وجل الرد بنفسه ، فقال: ﴿ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا ﴾ القصص ٥٧ . توبيخاً وتقريعاً لهم وإنكارا عليهم في هذا الاعتذار الواهي . فالاستفهام هنا استفهام إنكاري توبيخي [2] ، يقرعهم بالحجة في كذبهم في هذا الاعتذار ، إذ كيف يتخطفون وقد هيأ الله لهم حرماً آمناً حماهم من أعدائهم وهم علي حالهم في الكفر! فكيف يعقل أن يتخلى الله عنهم عندما يسلموا !؟ .

وقد ذكرهم الله في موضع آخر بنعمة الامتنان عليهم بالحرم الذي عصمهم من التخطف الذي يزعمونه فقال : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴾ سورة العنكبوت٦٧ .

---

(١) يراجع حاشية الشهاب علي تفسير البيضاوي ج٧ ص ٨٠ والتحرير والتنوير ج ٩ ص ٣٢١

(٢) يراجع فتح القدير ج٤ ص١٧٩ والتحرير والتنوير ج٢٠ ص١٤٩ .

والواو في قوله " أولم " واو العطف عطفت جملة الاستفهام علي قوله " وقالوا أن نتبع " والمعني وقالوا ذلك ونحن قد مكنا لهم حرماً ، إذ أصل " أو لم " ولم " بتقديم حرف العطف علي همزة الاستفهام لأن أداة الاستفهام جزء من جملة الاستفهام ، لكنها قدمت هنا للتعجيل بالإنكار عليهم والتوبيخ لهم ! وهي معطوفة علي ما قبلها وتقديم الاستفهام على العطف خاص بالهمزة دون أخواتها [1] .

وقوله " حرما آمنا " علي تقدير محذوف أي ذا أمن أو من باب الإسناد المجازي حيث أسند الأمن إلي الحرم والمقصود أمن أهله فيكون مجازاً عقلياً علاقته المكانية .

ثم زاد في بيان الفضل والمنة التي هم فيها بسبب الحرم بأن وصفه فوق أنه آمن ، أنه "يجبي إليه ثمرات كل شيء " وكل هنا مقصود منها التكثير وليس المقصود الإحاطة كما هو مفهوم من أصل معناها [2] ، وهذا الفضل وهذا الرزق منة وتفضل من الله تعالى " رزقاً من لدنا " استجابة لدعوة إبراهيم عليه السلام في قوله تعالي : ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ ٣٧ سورة إبراهيم .

ودلالة علي دوام الفضل واستمراره وتجدده مع الأزمان عبر بالمضارع " يجبي " ، الذي ساعد علي تخيل تجدد جبي جمع الثمرات إلى هذه البقاع المباركة كلما تجدد زمان جنيها وقطافها .

" رزقا من لدنا " أي من عندنا وهو كناية عن التكريم والبركة أي رزقا قدرناه لهم إكراما ،فكأنه رزق خاص من مكان شديد الاختصاص بالله تعالى [3] .

---

(١) يراجع شواهد التوضيح لابن مالك ص١١، ١٢ تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ط دار العروبة .

(٢) يراجع روح المعاني ج٢٠ ص ٩٧ .

(٣) يراجع التحرير والتنوير ج٢٠ ص ١٤٩ .

" ولكن أكثرهم لا يعلمون " استدراك متعلق بالكلام المسوق مساق الرد على قولهم " إن اتبع الهدى معك نتخطف " أو التقدير أن تلك النعمة نعمة ربانية ولكن أكثرهم لا علم لهم فلذلك لم يفطنوا إلى كنه هذه النعمة .

وفعل " لا يعلمون " منزل منزلة اللازم فلا يقدر له مفعول ، أي ليسوا ذوي علم ونظر بل هم جهلة لا يتدبرون الأحوال . ونفي العلم عن أكثرهم حتى لا يشملهم جميعاً ، لأن بعضهم أصحاب رأي ، فلو نظروا وتدبروا لما قالوا مقالتهم تلك .

إذن قد اتضح كيف منّ الله على خلقه بأن جعل لهم حرمًا آمنًا يلوذ به كل ضعيف ويأوي إليه كل مطلوب ، بل عظمه وتكفل بحمايته وحراسته من حوله فلا يخاف من احتمي أو حل في حرمه أن يتخطفه أحد أو يضيق عليه في رزقه، فتمرات كل شيء تجبى إليه بإذن ربها ، وبذلك يكون قد انتفى عن مشركي مكة أي عذر في عدم إيمانهم بالنبي ﷺ .

٢ - تشريف تعالى لإبراهيم عليه السلام بأن بيّن له مكان البيت وأذن له في رفع قواعده

لقد أهبط البيت العتيق مع آدم عليه السلام ،ثم رفع بعد طوفان نوح عليه السلام ثم شاء الله عز وجل أن يرفع قواعد هذا البيت بيد إبراهيم عليه السلام وابنه إسماعيل ، فبعث الله ريحًا كشفت له عن قواعد البيت فأتمّ البناء عليها [1] ، وإليك الآيات التي تبين ذلك .

قال تعالى : ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾ ٢٦ سورة الحج .

---

(١) راجع إعجاز القرآن ص ١٢٦ وما بعدها

والواو هنا في " إذ " وصلت الكلام السابق بما سيأتي ، وهي من باب عطف القصة على القصة أي عطف مجموعة جمل على مجموعة جمل . فقد انتقل من بيان جزاء الصادين عن سبيل الله والمسجد الحرام وجزاء الملحدين في المسجد الحرام بظلم إلى بيان مكانة البيت الحرام والحكمة من بنائه .

وقد تحدث الإمام عبد القاهر عن هذا النوع من العطف وأنه يندرج تحت باب الفصل والوصل ، إلا ليس ، الفصل والوصل يتعلق بعطف المفردات وعطف الجملة على الجملة فقط، بل متعلق بعطف مجموع جمل على جمل فقال : " ظهر العطف إذن موضوع على أنك تعطف جملة على جملة ، وتعمد أخرى إلى جملتين أو جمل فتعطف بعضاً على بعض ، ثم تعطف مجموع هذه على مجموع تلك "[2] .

ويعلم من هذا العطف الذي هنا في الآية تعلق الجملة المعطوفة عليها وذلك أن الملحد في المسجد الحرام قد خالف بإلحاده فيه ما أراده الله من تطهيره حين أمر ببنائه[3] .

و " إذا " اسم زمان مجرد عن الظرفية منصوب بفعل مقدر . والتقدير والاذكر إذ بوأنا والمعنى واذكر يا محمد وقت أن جعلنا لإبراهيم مكان البيت مباءة أي مرجعاً يرجع إليه للعبادة .

" وبوأنا " بمعنى عينّا له مكان البيت ليتخذه مباءة أي مرجعا ، وأصل بوء بالشيء يبوء بوءًا ، بمعنى رجع . وبوأهم منزلا: أي نزل بهم إلى سن جيل ، وبأت بالمكان ألفت به" [3] . لأنه البيت لما أودع الله فيه من للطائف كان أهلًا لأن يرجع إليه من فارقه ويحنُّ إليه ويشتاق كل من دخله .

---

(١) دلائل الإعجاز ص ٢٤٥ للشيخ عبد القاهر الجرجاني .

(٢) يراجع التحرير والتنوير ج١٧ ص ٢٤٠ .

(٣) لسان العرب ج١ ص ٣٩ ط دار صادر الطبعة الأولى .

والخطاب في الآية لسيدنا محمد ﷺ ، والمعنى واذكر للناس وقت جعلنا مكان البيت مرجعًا للعبادة . وقد توجه الأمر بالذكر هنا إلى الوقت دون ما وقع فيه من الحوادث مع أنها المقصودة بالذات ؛العلة في ذلك المبالغة في إيجاز ذكرها ، لما أن إيجاب ذكر الوقت إيجاب لذكر ما وقع فيه بالطريق البرهاني ، ولأن الوقت مشتمل عليها ، فإذا استحضر كانت حاضرة بتفاصيلها كأنها مشاهدة عيانًا [1].

وفي قوله " مكان البيت " إيجاز بالحذف كأنه قيل وإذا أعطيناه مكانًا ليخبر فيه بيأ ؛ لأن هذه الجملة أغنت عن ذكر قصة بناء البيت الحرام ، وهي معروفة بالنسبة للمخاطبين [2] . " وإبراهيم " مفعول أول ، " ومكان البيت " مفعول ثان ، فيكون بوأنا بمعنى أريناه أي أريناه أصله ليبنيه . وقيل اللام في " لإبراهيم " صلة للتأكيد كقوله تعالى ﴿ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ ﴾ أي ردفكم [3].

وقيل أن بوأنا نازلة منزلة فعل يتعدى باللام ،كنحو جعلنا :أي جعلنا لإبراهيم مكان البيت مباءة [4] . وقيل أن اللام في" إبراهيم " لام العلة ومفعول بوأنا محذوف والتقدير: بوأنا الناس لأجل إبراهيم كرامة له وعلي يديه [5] . وقال ابن عاشور : أن اللام لام العلة وإبراهيم مفعول أول " لبوأنا " لأنه من باب أعطى فاللام مثلها في قولهم " شكرت لك أي شكرتك لأجلك وفي ذكر اللام ضرب من العناية والتكرمة .

---

(١) يراجع تفسير أبي السعود ج٦ ص ٧٩ .

(٢) يراجع التحرير والتنوير ج١٧ ص ٢٤١ .

(٣) يراجع القرطبي ج١٢ ص ٣٩ .

(٤) يراجع المحرر الوجيز لابن عطية ج٤ ص١١٧ ط دار الكتب العلمية ط أولى ١٩٩٣

(٥) يراجع البحر المحيط لأبي حيان ج٦ ص٤٩٨ ط دار الفكر ١٩٩٢ .

ولعل هذا الرأي هو أرجح الآراء لأنه يجمع بين كون بوأنا يتعدى لمفعولين وبين كون اللام للعلة التي إفادة العناية والتكريم لسيدنا إبراهيم عليه السلام وأل في البيت في قوله " مكان البيت " عهدية لأنه معهود عند المخاطبين أنه البيت الحرام .

ولما كان البيت معهودًا عند المخاطبين لإقامة شعائر الدين جاء قوله " ألا تشرك بي شيئًا " تفسيراً وبياناً لقوله بوأنا لأن " أن " في أن لا تشرك " تفسيرية وقعت بعد جملة فيها معنى القول دون حروفه حيث أن قوله " بوأنا " متضمن لمعنى تعبدنا . لأن التبوئة كانت أصلا من أجل العبادة . وكان أصل الدين هو نفي الإشراك بالله. فعلم أن البيت جعل معلمًا للتوحيد بحيث يشترط علي الداخل إليه أن لا يكون مشركا [1] . وقيل " أن " مفسرة للقول المقدر : أي قائلين له لا تشرك بي شيئًا وطهر بيتي -- وقيل هي مصدرية موصولة بالنهي أي فعلنا ذلك لئلا تشرك بعبادتي [2].

وفي قوله " وطهر بيتي " إضافة البيت إلى ضمير الجلالة فيه تشريف للبيت وإعلاء لمكانته . والتطهير بمعنى التنزيه من كل خبث حسيٍّ كالأقذار ومعنويّ كالشرك والفواحش والآثام .

وفي الكلام إيجاز بالحذف دل عليه قوله " بوأنا لإبراهيم مكان البيت " والمعنى: وأمرناه ببناء البيت في ذلك المكان وبعد أن بناه قلنا له لا تشرك بي شيئا وطهر بيتي [3].

---

(١) يراجع تفسير أبي السعود ج٦ ص ١٠٣ . والتحرير والتنوير ج١٧ ص٢٤١ .

(٢) يراجع تفسير البغدادي ج٤ ص١٢٢ وتفسير النسفي ج٣ ص١٠١ ط دار القلم بيروت ط أولى ١٤١٥ تحقيق صفوان عدنان .

(٣) يراجع التحرير والتنوير ج١٧ ص ٢٤١ .

وقوله " لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ " علة للأمر بالتطهير: أي طهر بيتي لمن يطوف به ويصلي عنده ،والمقصود بالطائفين من يطوف حول البيت "والقائمين "من يقوم تجاه الكعبة للدعاء " والركع السجود " المصلون . ولما كانت كل واحدة منهن عبادة مستقلة برأسها جاء الوصل بينها بالواو لما بينهن من تغاير وأتبع الركع السجود دون عاطف لما بينهما من اتصال وثيق إذ لا ينفك أحدهن عن الآخر [1] .

وقيل المراد بـ " القائمين والركع السجود " المصلون . وعبر عن الصلاة بأركانها للدلالة على أن كل واحد منها مستقل باقتضاء التطهير أو التبوء فكيف بها وقد اجتمعت ؟ ولم يعطف بين الركع السجود لأن السجود من جنس الركوع في الخضوع [2] .

وفي ترتيب الكلمات في هذه الجملة " لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ " تناسق بديع حيث جاءت الكلمات متواليات متلاحمات تلاحماً سليماً مستحسناً . وهذا ما يسمى في علم البديع بحسن النسق . كما أنها جاءت مرتبة ترتيباً منطقياً مقنعاً حيث الطواف الذي فيه الحركة أولاً ، ثم القيام وهو الثبات في المكان ،ثم الركوع وهو أقرب إلى القيام ، ثم السجود الذي هو غاية التذلل وأقرب مقامات الخضوع والذلة بين يدي الخالق .

ثم تنتقل الآيات بعد ذلك إلى مشهد آخر تصور فيه تنفيذ إبراهيم عليه السلام وإسماعيل ما عهد به إليهما من رفع قواعد البيت وإتمام بنائه في تضرع وابتهال أن يقبل هذا العمل ...

---

(١) يراجع روح المعاني ج١٧ ص ١٤٣- يراجع نظم الدرر ج٥ ص ١٤٧ .

(٢) يراجع روح المعاني ج١٧ ص ١٤٣ .

قال تعالى : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ ١٢٧ سورة البقرة .

يقول صاحب الظلال : " إن التعبير يبدأ بصيغة الخبر حكاية تحكي " وإذ يرفع إبراهيم القواعد .. " وبينما نحن في انتظار بقية الخبر؛ إذا بالسياق يكشف لنا عنهما ويرينا إياهما كما لو كانت رؤية العين لا رؤيا الخيال ؛ إنهما أمامنا حاضران نكاد نسمع صوتيهما يبتهلان : " ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم "فنعمة الدعاء ، وموسيقى الدعاء ، وجو الدعاء .. كلها حاضرة كأنها تقع اللحظة حية شاخصة حاضراً يُسمع ويرى ويتحرك ويشخص وتفيض منه الحياة . إنها خصيصة " التصوير الفني " بمعناه الصادق اللائق بالكتاب الخالد " [1] .

وتبدأ الآية بواو العطف لأنها تعطف منقبة مستقلة أخرى لإبراهيم عليه السلام وهي تصوير حاله في بناء هذا البيت العتيق . وإذ هنا كسابقتيها متعلقة بمضمر مقدر تقديره اذكر إذ أو واذكروا وقت رفع إبراهيم القواعد من البيت .

ولما كان هدف الآية تصوير مشهد رفع البناء آثر التعبير بصيغة المضارع" يرفع " استحضاراً للصورة وحكايتها كأنها مشاهدة ، فهي صورة عجيبة مبتة عن معجزة باهرة ، والتعبير عن الماضي بالمضارع يدخل تحت خروج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر ، حيث إن البناء كان قبل حكاية الخبر، لكن استعمل المضارع بدلاً من الماضي على سبيل الاستعارة التبعية في الفعل ، حيث شبه الماضي بالمضارع لشهرته ولتصوير المشهد في ذهن المخاطب كأنه شاهد حاضر أمامه " لأن ما مضى من الآيات في ذكر إبراهيم من قوله " وإذ ابتلى إبراهيم ربه .. " إلى هنا

---

(١) في ظلال القرآن الكريم لسيد قطب ج ١ ص ٩١٤ ط دار الشروق الطبعة الرابعة عشرة .

لما يوجب امتلاء أذهان السامعين بإبراهيم وشؤونه حتى كأنه حاضر بينهم وكان أحواله حاضرة مشاهدة ، وكلمة إذ قرينة على هذا التنزيل ، لأن غالب الاستعمال أن يكون للزمن الماضي "[1] .

" والقواعد " جمع قاعدة وهي الأساس والأصل لما فوقه الموالي للأرض الملاصقة لها وأصل تسميتها قائم على المجاز والاستعارة ،حيث أشبهت القاعدة على الأرض في اللصوق ، ثم استعير لها هذا الاسم على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية ، وهاء التأنيث فيها للمبالغة "[2] .

ورفع القواعد هو البناء عليها والاعتلاء بها لتصير جداراً ؛ لأن البناء يتصل بعضه ببعض ويصير كالشيء الواحد . كما أنه بالبناء عليها نقلت من الانخفاض إلى الارتفاع وتطاولت بعد التقاصر "[3] .

وفي قوله " القواعد من البيت " وإيثار التعبير بذلك دون القول قواعد البيت لون رائع من ألوان الإطناب البلاغي ؛ وهو الإيضاح بعد الإبهام ؛ حيث ذكر القواعد مفردة مبهمة ، ثم بينها ووضحها بقوله " من البيت " لما في الإيضاح بعد الإبهام من تفخيم شأنها وتعظم أمرها .

يقول الزمخشري : " فإن قلت : " هلا قيل قواعد البيت ، وأي فرق بين العبارتين ؟ قلت : في إبهام القواعد وتبيينها بعد الإبهام ما ليس في إضافتها ، لما في الإيضاح بعد الإبهام من تفخيم لشأن المبين "[4] .

---

(١) التحرير والتنوير ج ١ ص ٧١٨

(٢) يراجع : تفسير أبي السعود ج ١ ص ١٥٩ ، والتحرير والتنوير ج ١ ص ٧١٨ .

(٣) الكشاف للزمخشري ج ١ ص ٣١١ .

(٤) المرجع السابق ، وينظر : المطول للتفتازاني ص ٢٩١ – ط المكتبة الأزهرية للتراث .

ثم يعطف بعد رفع إبراهيم للقواعد قوله " وإسماعيل " عطف على إبراهيم لاشتراكه معه في البناء والمناولة ، ولعل في تأخيره عن المفعول للإيذان بأن الأصل في الرفع هو إبراهيم عليه السلام وإسماعيل تبع له "[1] .

ثم تصور الآية حتى تلبس البناء ورفع القواعد بالالتجاء والتضرع إلى الله عز وجل أن يتقبل هذا العمل " ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم" .

ولعل في إضمار القول المقدر ما يصور هذا التلبس والاندماج ،إذ أصل الكلام يقولان ربنا تقبل . وجملة يقولان في محل نصب حال من إبراهيم وإسماعيل: أي حالة كونهما يقولان ..." "[2] .

" وماذا في ثنايا الدعاء ؟ إنه أدب النبوة وإيمان النبوة وشعور النبوة بقيمة العقيدة في هذا الوجود .. إنه طلب القبول .. هذه هي الغاية . فهو عمل خالص لله . الاتجاه به في قنوت وخشوع إلى الله والغاية من ورائه الرضى والقبول "[3] .

ويزيد في إظهار حالة تلبس هذا الدعاء بالعمل حذف أداة النداء، والدخول على الله تعالى مباشرة " ربنا تقبل منا " دون الالتجاء إلى أداة نداء قد تفصل الدعاء عن الحالة التي هما فيها من الخشوع والخضوع . وينبيء عن هذا الخشوع والخضوع التعرض لوصف الربوبية " ربنا " المعبر عن حاجة المربوب إلى إعانة سيده وتوفيقه للإخلاص في هذا العمل تمهيداً للقبول ؛ يعين على ذلك الإضافة إلى ضميرهما عليهما السلام في قولهما " ربنا " لتحريك سلسلة الإجابة بعد قرع الأبواب بالدعاء .كما أن في ترك المفعول في قولهما " تقبل منا "

---

(١) يراجع : تفسير أبي السعود ج ١ ص ١٦٠ .

(٢) يراجع : الجدول في إعراب القرآن وبيانه ج ١ ص ٢٦٣ – ط دار الرشيد العراق .

(٣) في ظلال القرآن ج ١ ص ١١٤ .

وعدم تحديده بعملهما في بناء البيت ليعم الدعاء هذا العمل وغيره من القرب والطاعات [1].

كما أن صيغة " تقبل " بما فيها من الدلالة على الإلحاح تدل على كمال الخضوع والتذلل رجاء القبول حيث أن الداعي يدرك تمامًا أن عمله مصاب بالتقصير وعدم الكمال ولذا أوثرت هذه الصيغة على ما قبل .

ثم يأتي تذيل الآية " إنك أنت السميع العليم " جملة تعليلية لرجائهما قبول العمل، وهذا هو سبب الفصل بين هذه الجملة وبين جملة الدعاء قبلها، وهذا الفصل يسميه علماء البلاغة بالفصل لشبه كمال الاتصال ؛لأن التعليل قائم مقام جواب سؤال اقتضته الجملة السابقة .

وقد جاء هذا التعليل مؤكداً بأكثر من مؤكد لإظهار يقينهما بمقتضى ومعنى هذه الجملة ؛ وهي وصفه بالسميع العليم ،وهما من مبالغات اسم الفاعل سامع وعالم، فهما على يقين تام أن الله تعالى سميع لجميع المسموعات التي من جملتها دعاؤهما ، عليم كل المعلومات التي من زمرتها نياتهما في جميع أعمالهما .

والمؤكدات التي احتوت عليها الجملة هي : إنّ واسمية الجملة، ثم القصر وطريقه ضمير الفصل " أنت " الذي جاء بين اسم إنّ وخبرها ، وهو قصر صفة على موصوف ، قصر صفة السمع والعلم بهذه الصيغة المبالغة عليه سبحانه وتعالى! وسر مجيء هذا القصر هو إظهار اختصاص دعائهما به تعالى والقطاع رجائهما عمن سواه بالكلية [2].

---

(١) يراجع تفسير أبي السعود ج ١ ص ١٦٠ .

(٢) يراجع تفسير أبي السعود ج ١ ص ١٦٠ .

وزيادة في إظهار كمال الضراعة والابتهال قدم صفة السميع على العليم لأن صفة السمع هي التي يترتب عليها إجابة الدعاء ، أو لما كان الدعاء لا يقبل إلا إذا خرج من قلب سليم صادق جاء الوصف بالعليم ليدل على إخلاصهما وصدق بواطنهما إلى الله تعالى حتى يكونا جديرين بتقبل الله تعالى لأعمالهما [1].

هكذا رسمت الآية امتزاج العمل والبناء لبيت الله الحرام الذي هو شعار للتوحيد والعبودية الخالصة بالدعاء الذي يصور كمال الخشوع والخضوع والتذلل،وتلك هي قمة العبودية حيث قيام العبد على أمر سيده كما أراده ثم الالتجاء إلى الدعاء طمعاً في القبول .

---

(١) يراجع أسرار التقارير في تناسق الجمل القرآنية - د/ محمد الأمين الخضري ص ٤٤ - ط ١٩٩٤م

المبحث الثاني

* بلاغة القرآن في بيان تحريم صدّ قاصدي المسجد الحرام من الدخول إليه *

من رحمة الله بعباده أن جعل لهم حرمًا آمنًا يلوذ به الخائف ويأوي إليه المطلوب ويحتمي به الضيف ، بل أن من رحمة الله تعالى الواسعة أن جعل الأمن في هذا البيت العتيق يشمل جميع المخلوقات من الأنس والطير والشجر . فهو الحرم الذي لا يقتل طيره ولا يعضد شجره ؛ فالإنسان والحيوان والطير والشجر يأمن علي نفسه في هذا الحرم فلا يتعرض له أحد بأذى ؛ حتى أنه كان في الجاهلية يرى الواحد قاتل أبيه في الحرم فلا يتعرض له ولا يؤذيه به ما دام داخل الحرم .

ورحم الله الشهيد سيد قطب إذ يقول : " إنها منطقة الأمان التي يقيمها الله في بيته الحرام ، كما يقيم فترة الأمان في الأشهر الحرم منطقة يأمن فيها الناس والحيوان والطير والشجر أن يناله الأذى وأن يروعها العدوان إنه السلام المطلق يرفرف علي هذا البيت استجابة لدعوة إبراهيم أبي هذه الأمة الكريم [1] .

ولأجل هذا الأمان الذي جعله الله للناس جميعًا حرّم صدّ من قصده للعبادة فيه والطواف به أو الاعتماء بحماه . كما حرم التعرض للأنعام والهدي الذي يهدى إلى هذا البيت العتيق .

وسوف نتعرض بإذن الله في هذا المبحث للآيات التي نصت علي ذلك .

١- وعيد الصادّين والملحدين بعذاب أليم:

قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ الحج ٢٥ ، لما تقدم الكلام في الآيات السابقة علي هذه

(١) في ظلال القرآن ج١ ص ٨٣٨ ط دار الشروق ط الرابعة عشرة ١٩٨٧ .

الآية عن فريقي المؤمنين والكافرين وأبان ما أعده الله عز وجل من الجزاء لكل من الفريقين . فالذين كفروا أعد لهم أنواعاً كثيرة ومتعددة من العذاب ، والذين آمنوا يدخلون الجنة ويحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير . استأنف كلامًا آخر عن فريق الكافرين ، وبين سببًا من أسباب استحقاقهم هذا العذاب ؛ وهو صدهم عن سبيل الله وصدهم المؤمنين عن المسجد الحرام الذي جعله الله عز وجل ملجأ لكل الناس سواء من كان منهم مقيماً بجواره أو من كان بعيداً عنه .

فقوله " إن الذين كفروا " استئناف لكلام جديد عن هؤلاء الكافرين . تصدره هنا حرف التأكيد " إنّ " لمجرد الاهتمام بالخبر ولفت الانتباه دون رد الإنكار أو شك لأن الخطاب للنبي ﷺ ولأمته وقد ورد التأكيد بهذه الصورة في القرآن الكريم كثيرا .

وقد تكون "إنّ "هنا لرد شك فيكون في الكلام خروج علي خلاف مقتضى الظاهر، حيث نزّل غير الشاك منزلة الشاك ،حيث لُزّل ﷺ في حرصه علي هداية هؤلاء الكافرين وإرادته النفع لهم منزلة من يشك في إذاقتهم العذاب الأليم ، بسبب كفرهم وصدهم عن سبيل الله وصد المؤمنين عن المسجد الحرام [1] .

ثم انظر إلى وسم هؤلاء القوم بصفة الكفر وصفًا ملازمًا لهم معهوداً عند المؤمنين . وذلك عن طريق مجيء المسند إليه معرفاً بالموصول " الذين " حيث إن اسم الموصول في رتبة المعرف بأل العهدية [2] فإن هؤلاء القوم الذين صدوا المؤمنين عن المسجد الحرام صار الكفر صفة ثابتة لهم ، فهم معهودون ومعروفون بالنسبة

(١) يراجع . التحرير والتنوير ج ١ ص ٢٤٧ .
(٢) مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح لابن يعقوب المغربي ج ١ ص ٢٠٢ - ضمن شروح

للمؤمنين ، فعندما يأتي الكلام عن الذين كفروا كأنه يخص قوماً بعينهم وهم رؤوس الشرك وزعماء العناد ، يؤكد ذلك مجيء صلة الموصول " كفروا " على صيغة الماضي حيث صار ذلك الفعل كاللقب لهم .

وقد يكون التعريف بالموصول مقصوداً منه الجنس المفيد للاستغراق ليشمل كل من اتصف بهذه الصفة وصد عن سبيل الله وصد عن المسجد الحرام في كل زمان ومكان ، وهنا يكون المقصود من الكفر أبلغ أنواعه [1] .

ولما كان الكلام هنا عن الكافرين لبيان ما أعد لهم من العذاب أليم ، عطف على ذلك سبباً آخر يضاف إلى كفرهم الذي استحقوا عليه العذاب فقال " وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ " أي بسبب كفرهم وصدهم عن سبيل الله والمسجد الحرام استحقوا ما سنبينه من العذاب الأليم .

وجاء التعبير عن صدهم عن سبيل الله بصيغة المضارع " ويصدون " للدلالة على تكرار الصدّ منهم ، وأنهم دائمون على هذا الإجرام . فالمضارع هنا ليس المراد منه حالاً أو استقبالاً ؛ وإنما المراد بيان استمرارهم في هذا الصد ؛ ولذلكحسن عطفه على الماضي كما هو في قوله تعالى ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ ﴾ ٢٨سورة الرعد [2] .

وهذا الاستمرار والدوام الذي أفادته صيغة المضارع " يصدون " ليس مقصوداً به تجدد صدهم للمؤمنين في المستقبل ، إنما الاستمرار والدوام يرسم الصورة التي كانوا عليها من إصرارهم على صد المؤمنين عن سبيل الله وعن دخول

---

(١) يراجع المحرر والتنوير ج ١ ص ٢٤٨ .

(٢) يراجع : تفسير البيضاوى ج ٤ ص ١٢٢ ، وتفسير أبي السعود ج ٥ ص ١٠٣ .

المسجد الحرام [1] ولذلك قال الأمام الآلوسي بأن " يصدون " بمعنى صدوا وعبر بالمضارع استحضارا للصورة الماضية تهويلا للأمر [2] .

وزيادة في التشنيع على هؤلاء الصادين عن سبيل الله عطف عليه صدهم عن المسجد الحرام فقال " والمسجد الحرام " فهو معطوف على " سبيل الله " وقيل هو معطوف على لفظ الجلالة " الله " والمعنى إذن : ويصدون عن سبيل الله وعن المسجد الحرام . أو على تقدير فعل محذوف فسّره المذكور أي ويصدون عن المسجد الحرام [3] .

والمقصود من المسجد الحرام المسجد نفسه الذي فيه الكعبة وهو ظاهر؛ لأنه لم يذكر غيره ، وقيل الحرم كله أي مكة : لأن المشركين صدوا رسول الله ﷺ وأصحابه عام الحديبية فنزلوا خارجاً عنه ، وقيل المراد مكة كلها لكنه قصد المسجد الحرام اهتماماً به لأنه المقصود بالصدّ " [4] .

والصد عن المسجد الحرام داخل في الصدّ عن سبيل الله ؛ وإنما ذكره بعده وعطفه عليه من باب ذكر الخاص بعد العام ، وهو موضع من مواضع الإطناب ، ولطيفة ذكر الخاص بعد العام تتمثل في ذكر الشيء مرتين – اهتماما به – مرة مندرجاً تحت العام ومرة وحده . وذلك لزيادة التشنيع على هؤلاء الكفار الذين صدوا فريق المؤمنين عن دخول هذا البيت الذي جعله الله مثابة للناس وأمنا ، كما أن فيه بيانا لحرمة هذا البيت ومقدار الجريمة التي يرتكبونها من يصد الناس عن قصده .

---

(٣) تفسير البيضاوى ج ٤ ص ١٢٢ ، وتفسير أبي السعود ج ٥ ص ١٠٣ .

(٤) يراجع : المحرر الوجيز لابن عطية ج ٤ / ١١٦ – ط دار الكتب العلمية – ط أولى ١٩٩٣ ، وتفسير القرطبي ج ١٢ ص ٣١ .

كما أن فيه شيئاً بديعاً آخر وهو حسن تخلص[1] إلى ما بعده من بيان حق المسلمين في المسجد الحرام وقبول أمر الإلحاد فيه ، وذكر من قام ببنائه والتنويه به وتنزيهه عن أن يكون مأوى للشرك ورجس الظلم والعدوان[2].

ولما ذكر الصد عن المسجد الحرام زاد في إظهار قبح جرمتهم بقوله : " الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ " . فوصفه بهذه الجملة ليبين شديد ظلمهم في الصد عنه، ووصفه بالاسم الموصول " الذي " تظهر بلاغته في أنه مكن من إجراء الجملة الفعلية " جعلناه للناس سواء " عليه ، والجملة الفعلية هنا فعليها الماضي توحي بثبوت هذا الأمر وتأكده ؛حيث تبين أن الأمر قد قضى ولا حيلة لهم في الاستئثار به دون غيرهم ؛ يؤكد ذلك تعلق الجار والمجرور " للناس " بهذا الفعل الماضي " جعلناه " وتقديمه على المفعول الثاني " سواءً " مما يوحي بعموم حق ارتياد هذا البيت لكل البشر دون خصوصية لأحد وهذا مما يؤكد عظم جرمهم وقبح مرتكبهم .فالله عز وجل قضى أن يكون هذا البيت محلا للعبادة لجميع الناس يستوي فيه العاكف أي المقيم حوله – الباد أي الطارىء إليه أي الزائر من البادية أو من أي مكان بعيد .

وأصل " الباد " اسم فاعل من بدا أي خرج إلى البادية ووزنه فاعل وحذف الياء منه ليس إعلالا بل مراعاة للقراءة وصلا ووقفا . وفيه إعلال بالقلب ، فالأصل البادو . بواو في آخره – لأن المضارع يبدو فحركت الواو بعد كسر فقلبت ياء فأصبح بادي[3] .

---

(١) حسن التخلص ذكره ابن أبي الإصبع ضمن ألوان البديع وقال عنه " ذهب أصحاب الإيجاز إلى أنه وجه الإيجاز وهو دقيق يلقى على نوع اشتباق من أنواع البلغة . يراجع : تحرير التحبير ص ٤٣٣ – تحقيق / حفني محمد شرف – ط نهضة مصر الأهلي للطبعة الإسلامية .

(٢) يراجع : التحرير والتنوير ج ٢ ص ٢٣٦ .

(٣) يراجع تفصيل في إعراب القرآن وبيانه لمحيي الدين درويش ج ٥ ص ١٠٦ – ط دار الرشيد – دمشق .

وذكر العاكف والباد بعد قوله للناس لون من ألوان البديع يسمى صحة الأقسام وهو عبارة عن استيفاء المتكلم جميع أقسام المعنى الذي هو آخذ فيه بحيث لا يغادر منه شيئا "[1] .

لأن قوله "للناس " لا يخرج عن كونه " عاكف " حول الحرم أو " باد " أي طارىء عليه وبذلك يكون قد استوفى جميع أفراد الناس .

كما يمكن أن يندرج تحت باب الإيغال[2] وهو لون راق من ألوان البديع التي يلجأ إليها المتكلم ليأتي بمعنى زائد على معنى الكلام ؛ حيث أفاد قوله " العاكف فيه والباد " زيادة على معنى الشمول المستفاد من قوله" للناس" معنى تساوي به البعيد مع القريب من الحرم في حق العبادة فيه والطواف به ؛كما أن بين العاكف " و" الباد " طباقاً أكد معنى التسوية ووضحه .

إلى هنا لم يكتمل الكلام فقوله: " إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ " يحتاج إلى تمام الفائدة ، وهو خبر إن .

وقد قال العلماء أن خبر إن محذوف دل عليه آخر الآية وهو جواب الشرط في قوله : " وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ " فيكون التقدير " إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام الذي جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد نذقهم من عذاب أليم "[3] .

---

(١) بديع القرآن لابن أبي الإصبع ص ٤٨ – تحقيق / حفني محمد شرف – ط نهضة مصر

(٢) يراجع : بديع القرآن ص ٩٦ .

(٣) يراجع : تفسير البيضاوي ج ٤ ص ١٢٢ ، والقرطبي ج ١٢ ص ٣٩ .

وقوله : ﴿ وَالْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ جملة شرطية عطفت على ما قبلها وهي قوله " والمسجد الحرام الذي جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد " لتكمل قدسية البيت، وتوضح أن الجزاء الذي استحقه الكفار بصدهم عنه قد يستحقه أي إنسان هم فيه بسيئة وانحرف فيه عن الاستقامة .

والعطف هنا اقتضاه المقام لاشتراك الجملتين في المعنى وقصد تشريكهما في الحكم الإعرابي ، وإفراغ الجملة في القالب الشرطي يعطي المعنى مزيداً من الاهتمام ، ويستحث في المخاطب الانتباه واليقظ بما يحدث فيه من التشويق لسماع الجزاء بمجرد إلقاء فعل الشرط إليه ؛ فإن النفس البشرية تتشوف في شوق عند سماع فعل الشرط إلى سماع الجزاء إن كان الشرط يبشر بخير ؛ كما أن النفس البشرية ترقب في حذر عند سماع الشرط إذا كان الشرط ينبئ عن عقاب وشر .

وهنا لما كان الشرط واقعاً في حيز الترهيب من مجرد الهم بالسيئة في هذا البيت العتيق ترقب المخاطب الجزاء في خوف ووجل، خاصة وأن المتكلم هو رب العزة تبارك وتعالى يتوعد من يهم في بيته بسيئة بالعذاب الأليم .

ثم تأمل الترهيب حين يبلغ مداه حين حذف مفعول " يرد " ليتناول كل شيء يمكن أن تفكر فيه النفس البشرية ، فكأنه قال ومن يرد فيه مراداً ما ، نذقه من عذاب أليم وهذا يتضرك بعظم هذا البيت الذي توعد الله على النية السيئة فيه .

وحتى لا يقع الهم بالخير تحت طائلة الترهيب جاء التقييد بقوله " بإلحاد بظلم " أي بعدول عن القصد وبغير حق ؛ لأنه لا يقع تحت هذا الأمر صد الكافر والمشرك عن هذا البيت ؛ فإن صدهم عن البيت حق لأنهم نجس . وكذلك صد الحائض والجنب والخائن [1] .

(١) يراجع : نظم الدرر ج ٥ ص ١٤٥ .

وأصل الإلحاد الانحراف عن الاستقامة إذ " الإلحاد " مصدر قياسي لفعل " ألحد الرباعي.: أي عدل عن القصد [1] . و" إلحاد " و " ظلم " حالان مترادفان ، أو الثاني بدل من الأول بإعادة الجار ، أو أن الثاني صلة ، والمعنى : ملحداً بسبب الظلم كالإشراك واقتراف الآثام [2] .

ثم تأمل جواب الشرط وما يفيض به من تهويل " نذقه من عذاب أليم " وتأمل في إسناد الإذاقة إليه سبحانه حيث يتولاه بنفسه مما يزيده تهويلاً وتفريعاً .

كما أن في اختيار الإذاقة بدلاً من يعذبه مثلا أو غيرها ما يشعر بشدة العذاب ، وهي مستعارة لشدة الإحساس بالعذاب ؛ إذ أصل الإذاقة إحساس اللسان بأحوال الطعام ، وهي مستعارة هنا للإحساس بالألم والأذى إحساسا ممكنا كتمكن ذوق الطعام من فم ذائقه لا يجد له مدفعا ، فقد شبه ما يدرك من أثر الضرر والألم بما يدرك من طعم الشيء المر بجامع الإحساس بالألم وكراهية النفس له، ثم استعار الإذاقة للإحساس بالألم ، ثم اشتق من الإذاقة نزقه على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية .

ومن في " من عذاب أليم " تبعيضية أي نذقه عذابًا من عذاب أليم ، والتنكير في " عذاب " يوحي ببشاعة العذاب وشناعته، يضاعف ذلك وصفه بقوله " أليم " ليؤكد على شدة العذاب وهوله .

إذن قد اتضح من خلال هذه الآية الوعيد بالعذاب الشديد لكل صاد عن بيت الله أو ملحد فيه بظلم دون التفريق بين كونه مسلم أو غير مسلم عن طريق

(١) يراجع : تفسير أبي السعود ج ١ ص ١٠٣ .
(٢) يراجع : القرطبي ج ١٢ ص ٣١ .

إدماج الخبر المحذوف في جواب الشرط المذكور "ومن يرد .... نذقه من عذاب اليم " ، ليدخل تحت طائلة الوعيد كل من هم بالصد ولو كان مسلما ، حتى تدرك النفوس قدسية هذا البيت وغيرة ربه عليه .

٢ - تحريم التعرض لأي شيء له علاقة بالحرم :

للتأكيد على قدسية هذا البيت وحرمة التعرض لقاصديه سلك القرآن مسلكًا آخر يحرم فيه التعرض لأي شيء يخص هذا البيت،فحرم التعرض حتى للحيوان

أو للطير بداخل الحرم أوفي أيام الحج .

قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُحِلُّواْ شَعَآئِرَ اللّهِ وَلاَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلاَ الْهَدْيَ وَلاَ الْقَلآئِدَ وَلا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُواْ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [٢] سورة المائدة .

كان الحديث في الآية السابقة على هذه الآية عن تحليل الأنعام للإنسان يأكل منها ويتمتع بها فقال " أحلت لكم بهيمة الأنعام إلا ما يتلى عليكم .... " .

ثم شرع في بيان الاستثناء من هذا التحليل فمن هذه الأنعام ما هو محرم حرمة وقتية أو مكانية - كالذي معنا في هذه الآية - ومنها ما هو محرم حرمة مطلقة كالذي في قوله " حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير ..... " .

فالآية هنا تفصل ما هو محرم حرمة وقتية ومكانية وهو قتل الصيد والهدي في أيام الحج وداخل الحرم . ولما كان الحديث عن الحرمة في أيام الحج شمل التحريم

كل شيء يخص هذا الموسم . فحرم على المسلم أن يستحل أي شعيرة من شعائر الحج ، ويدخل تحتها الهدي والقلائد ، وكذلك كل من قصد بيت الله ابتغاء رضوان الله ، فلا يقتل صيد داخل الحرم ولا يصد قاصد البيت لأي سبب من الأسباب ، ثم أوصى في نهاية الآية بالتعاون على البر والتقوى ونهى عن التعاون على الإثم والعدوان .

وقد استهل البيان في هذه الآية بالنداء للفئة المؤمنة بصفة الإيمان المحببة إلى قلوبهم ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ﴾ تكريماً لهم وتعظيماً وتشويقاً لهم لسماع ما بعد هذه الصيغة وحفزاً لهم على الامتثال والطاعة ؛ فأسلوب النداء أسلوب تشويقي رائع يهيئ المنادي وينبهه فيصغي بعناية وتشوق إلى ما يوجه إليه بعد النداء ؛ وخاصة إذا كان بصفة الإيمان المحببة إلى قلوب المؤمنين ؛ وكأن الله عز وجل يذكرهم بأن ما سيأتي بعد هذا النداء هو حق من حقوق الصفة التي نودوا بها .

ولذا لما جاء رجل إلى الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود وقال له اعهد إليّ قال له : إذا سمعت الله يقول " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ " فأرعها سمعك فإنه خير يأمر به أو شر ينهى عنه [١] .

نعم أنها تستدعي الانتباه واليقظ لأن " أيها " حرف تنبيه تقدمه " يا " وهي أداة نداء للبعيد حساً أو معنى ، مختصة بالدخول على أيها وأيتها لا يدخل عليهما غيرها [٢] .

فإذا ما وجه الخطاب بـ " يا " التي للبعيد أو ما في منزلته - كالساهي والنائم ثم تلتها " أيها " التي هي حرف تنبيه ، ثم يأتي بعد ذلك الموصوف بهذه

---

(١) يراجع : تفسير ابن كثير ج ٢ ص ١٣٠ - ط دار إحياء الكتب العربية .

(٢) يراجع : الأشباه والنظائر للسيوطي ج ٢ ص ١٣٠ - ط دار المعارف العثمانية - ط الثانية ١٣٦٠ هـ .

الصفة المحببة إلى القلوب " الذين آمنوا " ،دلّ ذلك كله علي أن ما بعدها أمر مهم غاية الأهمية يستدعي الانتباه ويتطلب التيقظ .

ومجيء المسند إليه اسم موصول " الذين " له دلالته البلاغية حيث مكن من مجيء وصفهم بالإيمان بطريقة الجملة الفعلية التي فعلها ماضٍ ، لتوحي بثبوت الإيمان فهم صفة ملازمة لهم من قديم . وهذا أدعى إلى الامتثال والاستجابة لما سيوجهون إليه .

وبعد أن هيأ نفوس المؤمنين بهذا النداء الحاني الذي رقق القلوب وأرهف المشاعر واسترعى الانتباه والتيقظ ألقى إليهم التوجيه المطلوب منهم فقال : ﴿ لا تُحِلُّوا شَعَآئِرَ اللَّهِ وَلاَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلاَ الْهَدْيَ وَلاَ الْقَلآئِدَ وَلا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا... ﴾ .

والشعائر جمع شعيرة بمعنى العلامة مشتقة من شَعَرَ إذا علم وفطن ، فالشعائر ما جُعل علامة على أداء عمل من أعمال الحج والعمرة ؛ وهي المواضع المعظمة كالمواقيت والمعالم التي يعرف بها الحجاج المناسك كالصفا والمروة والسعي ومرمى الجمار [1] .

والمعنى لاتحلّوا هذه الأمور بأن يقع منكم الإخلال بشيء منها أو أن تحولوا بينها وبين من أراد فعلها .

وقد وُجِّه الخطاب إلى الذين آمنوا مع أنهم لا يظن بهم إحلال المحرمات ؛ ليدل علي أن المراد النهي عن الاعتداء علي هذه الشعائر الإلهية التي يأتيها المشركون كما يأتيها المسلمون [2] .

---

(١) يراجع : التحرير والتنوير ج ٦ ص ٨١ .

(٢) يراجع : المرجع السابق .

وقيل المراد بالشعائر : فرائض الله ومتعبداته من الحلال والحرام ، ولا مانع من حمل ذلك علي الجميع اعتبارا بعموم اللفظ .

وبذلك يكون إطلاق الشعائر علي الفرائض والمتعبدات إطلاقاً من باب المجاز ، حيث استعار الشعائر بمعنى العلامات للفرائض بجامع دلالة كل منها علي امر معين وذلك علي سبيل الاستعارة التصريحية [1] .

والنهي عن إحلال شعائر الله مستعمل في معناه الحقيقي وهو طلب الكف عن أمر علي جهة الاستعلاء؛ لأن النهي صادر من العليّ القدير، ولا قرينة تخرجه عن معناه الحقيقي إلى معنى آخر .

وقوله " وَلاَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلاَ الْهَدْيَ وَلاَ الْقَلآئِدَ وَلاَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلاَ الْهَدْيَ وَلاَ الْقَلآئِدَ وَلا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا " يدخل تحت النهي عن استحلال شعائر الله . فهو إذن من باب عطف الجزئي علي الكلي أو من باب عطف الخاص علي العام ، وذلك اهتماماً بشأنه ومبالغة في تحريمه . من باب ذكر الأمر مرتين ،مرة مجملاً ومرة مفصلاً .

والمراد بالهدي كل ما أهدى إلى البيت الحرام في مناسك الحج ليُنحر في المنحر بمنى " والقلائد " أي ذوات القلائد فهي علي تقدير مضاف محذوف ،فقيها إيجاز بالحذف . وعطفها علي الهدي علي الرغم أنها منه للاختصاص ،لأنها أشرف الهدي . والقلائد جمع قلادة وهي ضفائر من صوف أو وبر يربط فيها قطعة من لحاء الشجر توضع في أعناق الهدايا مشبهة بقلائد النساء ، والمقصود منها أن يعرف الهدي فلا يتعرض له .

---

(١) يراجع : فتح القدير ج ٢ ص ٦ ، وصفوة التفاسير ج ١ ص ٣٢٠ للصابوني - ط مؤسسة مناهل العرفان بيروت - ط الأولى ١٩٨٦م .

وقيل المراد النهي عن التعرض للقلائد نفسها مبالغة في النهي عن التعرض لأصحابها، علي معنى لا تحلوا قلائدها فضلا عن أن تحلوها ، كما نهي عن إبداء الزينة في قوله ﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ﴾ ٣١ سورة النور ، مبالغة في النهي عن إبداء مواضعها .وقوله " وَلَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ " معطوف أيضا علي لا تحلو شعائر الله أي ولا تحلو قاصدي البيت الحرام وهم الحجاج [1].

وعلي ذلك الآية مختصة بالمسلمين فلا يجوز لمشرك أن يقصد البيت الحرام بحج أو لغيره لأنه نجس ، والآية منسوخة في حق الكفار .

يقول ابن عباس آيتان نسختا من المائدة آية القلائد - التي نحن بصددها - وقوله : ﴿ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِن جَآءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ ٤٢ سورة المائدة فإن آية القلائد نسخها الأمر بقتل المشركين حيث كانوا في قوله ﴿ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ﴾ ٨٩ سورة النساء ، وأما الثانية فنسخها قوله تعالى : ﴿ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ اللَّهُ ﴾ ٤٩ سورة المائدة [2].

أيضا مما يدل علي نسخ ذلك في حق المشركين قوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ ٢٨ سورة التوبة .

---

(١) تفسير أبي السعود ج ٣ ص ٣ .

(٢) يراجع : التحرير والتنوير ج ٣ ص ٧ ، ويراجع : القرطبي ج ٦ ص ٤٠ .

والذي يؤكد أن المقصود في الآية النهي عن صد قاصدي المسجد الحرام من المسلمين وليس المشركين قوله "يبتغون فضلاً من ربهم ورضواناً" فهي جملة حالية من الضمير المستكن في قوله : ﴿ وَلَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ ﴾ أي آمين البيت حال كونهم يبتغون فضلاً من ربهم ورضواناً، والذي يبتغي الرضوان المسلم وليس المشرك .

وتنكير " فضلاً " و" رضواناً " قصد منه التفخيم والتعظيم : أي فضلاً ورضواناً عظيماً ، فكما يقول صاحب الطراز : " التنكير قد يجيء لفائدة جزلة، يقصر عن إفادتها العَلَم ، ولا يبلغ كنهها رسم القلم " [1] والفضل هو صلاح العمل والرضوان هو الله تعالى عنهم وثواب الآخرة .

والتعرض لعنوان الربوبية في قوله " من ربهم " وإضافة الرب إلى ضميرهم لتشريفهم والإشعار بحصول مبتغاهم . وقيل للإيماء إلى اقتصار التشريف عليهم وحرمان من تعرض لهم من هذا الرضوان ؛ وفي ذلك تعليل للنهي وتأكيده والمبالغة في استكار المنهي عنه [2].

وقد رأي الشيخ الطاهر بن عاشور أن النهي عن التعرض للحاج يشمل المشركين فقال : " ووجه النهي عن التعرض للحجيج بسوء وإن كانوا مشركين أن الحالة التي قصدوا فيها الحج وتلبسوا عندها بالإحرام حالة خير وقرب من الإيمان بالله وتذكر نعمه ، فيجب أن يعاونوا علي الاستكار منها ؛ لأن الخير يتسرب إلى النفس رويدا ، كما أن الشر يتسرب إليها كذلك " [3].

---

(١) العلوي في كتاب الطراز ص ٢٠٨ - دار إحياء التراث العربي - بيروت .

(٢) يراجع : تفسير أبي السعود ج ٣ ص ٤ ، وروح المعاني ج ٦ ص ٥٤

(٣) التحرير والتنوير ج ٦ ص ٨٥ .

ورأى الشيخ ابن عاشور جانبه الصواب - من وجهة نظري - إذ كيف يسمح لمشرك أن يدخل البيت الحرام بعد تأكد النهي عن دخولهم بالكتاب والسنة فالله عز وجل قال : ﴿ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلاَ يَقْرَبُواْ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا ﴾ (٢٨) سورة التوبة .

وفي السنة ما صح عند البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه بعثه في الحجة التي حجها أمّره عليها رسول الله صلي الله عليه وسلم قبل الوداع يوم النحر في رهط يؤذن في الناس ، ألا لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان "[1] .

وعلي رأي الشيخ ابن عاشور هل يمكن السماح للسالحين من المشركين دخول البيت الحرام بحجة إنهم يقصدون حجه والطواف به ؟! هذا غير معقول ولا يمكن السماح به .

وقوله تعالى " وإذا حللتم فاصطادوا " تصريح بمفهوم قوله " غير محلي الصيد وأنتم حرم " في الآية السابقة التي بينت حرمة الصيد للمحرم . فجاء قوله وإذا حللتم فاصطادوا القصد تأكيد الإباحة أي إذا زال سبب التحريم رجع حال الصيد إلى أصله من الإباحة فالأمر هنا في قوله " فاصطادوا " ليس مقصود به الوجوب والإلزام وإنما خرج إلى المعني الإباحة لبيان السبب الذي من أجله حرم الصيد[2] .

---

(١) صحيح البخاري ك الحج باب لا يطوف بالبيت عريان - رقم الحديث ٤١٠٥ - ط دار ابن كثير اليمامة بيروت - ط الثالثة ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م ، وصحيح مسلم ج ٢ ص ٩٢٨ ك الحج باب لا يحج البيت مشرك - رقم الحديث ١٣٤٧ - ط دار إحياء التراث بيروت - تحقيق / محمد فؤاد عبد الباقي .

(٢) يراجع : فتح القدير ج ٢ ص ٦ ، والتحرير والتنوير ج ٦ ص ٨٥ .

ولعل من الملاحظ أن جملة وإذا حللتم فاصطادوا جاءت معترضة بين النهي عن إحلال شعائر الله وبين قوله " ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام " فما علة اعتراض هذه الجملة بين كلامين متصلين ؟ .

يذكر صاحب روح المعاني السبب فيقول :" وجملة وإذا حللتم فاصطادوا جملة معترضة بين ما تقدم وبين النهي المتعلق به وعلله الطيبي بأنه ليكون إشارة وإدماجًا إلى القاصدين ما داموا محرمين يعلون فضلًا من رهم كانوا كالصيد عند الحرم فلا تعترضوهم وإذا حللتم وهم فشأنكم وإياهم "[1] .

وقوله : ﴿ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ ﴾ معطوف علي قوله " لا تحلوا شعائر الله .... لزيادة تقرير مضمونه كأنه قيل لا تحلوا شعائر الله ولو مع عدوكم إذا لم يبدأ وكم بحرب. وهذا التقرير والتأكيد علي الرغم من اندراجهم في النهي في قوله "لا تحلوا شعائر الله ... ولا آمين البيت الحرام " لأنه ربما يتوهم أن صدهم للمسلمين قبل ذلك عن المسجد الحرام مسوغ لإحلالهم "[2] .

والمعنى لا يحملنكم بغضكم لقوم لأجل أنهم صدوكم عن المسجد الحرام علي الاعتداء عليهم.. والنهي هنا مستعمل في معناه الحقيقي وهو طلب الكف علي جهة الاستعلاء .

ولما نهاهم عن الاعتداء أمرهم بالتعاون علي البر والتقوى فقال : " وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ " .

---

(١) روح المعاني للآلوسي ج ٦ ص ٥٦ .

(٢) يراجع : تفسير أبي السعود ج ٣ ص ٥ .

يقول الإمام أبو السعود : " لما كان الاعتداء غالباً بطريق التظاهر والتعاون أمروا إثر ما نهوا عنه بأن يتعاونوا علي كل ما هو من باب البر والتقوى ومتابعة الأمر ومجانبة الهوى ، فدخل فيه ما نحن بصدده من التعاون علي العفو والإغضاء عما وقع منهم دخولاً أولياً ، ثم نهوا عن كل ما هو من مقولة الظلم والمعاصي بقوله " ولا تعاونوا على الإثم والعدوان " فاندرج فيه النهي عن التعاون على الاعتداء والانتقام بالطريق البرهاني "[1] .

وعلي ذلك فجملة " ولا تعاونوا علي الإثم والعدوان " مؤكدة لمضمون جملة " وتعاونوا علي البر والتقوى " ؛ لأن الأمر بالشيء وإن كان يتضمن النهي عن ضده إلا أن ورود النهي عن هذا الضد صراحة يؤكد الأمر الأول ويقرره ؛ فهم مأمورون بأن يعين بعضهم بعضاً علي العفو والإغضاء وعدم الانتقام . ومن هنا ظهرت المناسبة الداعية لوجود واو الوصل بين الجملتين وذلك لوجود الجهة الجامعة بينهما ؛ حيث اتحاد المسند إليه فيهما وهو ضمير المخاطب،والتلازم بين المسندين وهو التعاون علي الطاعة . وعدم التعاون علي المعصية ، وقبل ذلك اشتراكهما في الإنشائية لفظا ومعنى .

كما أن وجود الأمر بالشيء في قوله " وتعاونوا علي البر والتقوى " ثم إتباعه بالنهي عن ضده في قوله "ولا تعاونوا على الإثم والعدوان" أحدث إيقاعاً صوتياً رائعاً يضاف إلى جمال المعنى وتناسبه . وهذا اللون البديعي يسمى بالمقابلة حيث قابل بين " تعاونوا " و " ولا تعاونوا " وبين " البر" و" الإثم " وبين " لتقوى " و " العدوان " فأحدث بذلك انسجاماً وتلاؤماً بين اللفظ والمعنى وبين الشكل والمضمون .

---

(١) تفسير أبي السعود ج ٣ ص ٦ .

وبعد جملة الأوامر والنواهي السابقة من أول الآية ذيل ذلك كله بقوله " واتقوا الله إن الله شديد العقاب " ومعنى لتقوى الله الخوف منه ومراقبته في جميع الأحوال ؛ وذلك ليؤكد علي وجوب الامتثال للأوامر والنواهي في جميع ما سبق بطريق الأولى ؛ وذلك لدخول جملة الأوامر والنواهي السابقة تحت الأمر العام بالتقوى فوجب الاتقاء فيها بالطريق البرهاني . ثم علل ذلك بقوله : " إن الله شديد العقاب " أي لمن لا يتقيه فيعاقبكم لا محالة أن لم تتقوه وإظهار الاسم الجليل في قوله " إن الله " لإدخال الروعة والخوف في قلوب المخاطبين حتى يستحضروا عظمة الخالق وجلاله وفصل بين قوله " واتقوا الله " وبين " إن الله شديد العقاب " لشبه كمال الاتصال وذلك لوقوع الثانية جواب السؤال المتضمن الجملة الأولى . أي أن الكلام السابق يثير في النفس خواطر تقتضي هذا الكلام وتستدعيه فيأتي الجواب كتفاية لحاجة النفس ووفاء لها .

وهذا الفصل وصل خفي بغير أداة فالوصل بين الجملتين هنا يحمد علي اتصال المعنى وتولد بعضه عن بعض .

كما أن مجيء الفاصلة : ﴿ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ على هذه الصورة مؤتلف ومتوافق مع معنى كل ما سبق من أول الآية ؛ فالآية من أولها لآخرها وهي عن التعرض لحرمات الله وشعائره ثم الشهر الحرام ، ثم البيت الحرام ،ثم ما يتعلق بالبيت الحرام من الهدي والقلائد وقاصدي هذا البيت ،فناسب ذلك كله أن يكون التخويف بقوله " شديد العقاب "حتى لا يجرؤ أحد علي استحلال محارمه تعالى .

٢- التصريح بعذاب الصادين عن المسجد الحرام بعد انتفاء العذر عنهم :

قال تعالى : ﴿ وَمَا لَهُمْ أَلاَّ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ ٣٤ سورة الأنفال .

لقد توعد المولى تبارك وتعالى في هذه الآية كفار قريش بالعذاب جزاء كفرهم وصدهم المسلمين عن زيارة المسجد الحرام زاعمين بهتانهم أنهم ولاة البيت الحرام يأذنون لمن شاءوا ويمنعون من شاءوا ؛ فنفى الله عنهم ولاية البيت لأنهم مشركون ؛ وأولياء البيت هم المتقون الذين يعبدون الله حق عبادته ، أما هؤلاء المشركون الزاعمون أنهم أولياء البيت ما كانوا يعبدون الله حول البيت ؛ إنما كانت صلاتهم مكاءً وتصدية : أي صفيراً وتصفيقاً بالأيدي، وهذا هو الاستهزاء بعينه ؛ ولذلك عقب الله تعالى بتوعدهم بالعذاب بقوله : " فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون " .

فقوله "وَمَا لَهُمْ أَلاَّ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ " معناه : وأي شيء لهم يمنع عنهم عذاب الله عز وجل والحال أنهم يصدون قاصدي المسجد الحرام – الذي هو بيت الله – عن العبادة ، فالاستفهام هنا استفهام إنكاريّ تكذيبيّ رداً على اعتقادهم أنهم لن يصيبهم عذاب بحجة أنهم متأكدون أن ما جاء به محمد ﷺ ليس هو الحق ، حتى وصل بهم الحد أن دعوا على أنفسهم باستحقاق العذاب إن كان حقاً، وقد حكى الله عنهم ذلك بقوله : " وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم " فأجابهم الله أن تأجيل العذاب عنهم كرامة لكون النبي بين أظهرهم وفيهم ضعفاء مسلمون يستغفرون فقال : ﴿ وَمَا

كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ لكن لما زال عنهم سبب منع العذاب وهو أن النبي ﷺ خرج من بين أظهرهم ، يضاف إلى ذلك سبب آخر يستحقون به العذاب وهو صدهم الحجاج والعمار عن المسجد الحرام لم يبق لهم شيء يمنعهم من نزول العذاب إن أراد الله نزوله بهم .

فالاستفهام هنا "ردٌّ عليهم وإنكار لدعواهم عدم نزول العذاب وتكذيب لاعتقادهم ذلك " والمقصود الكناية عن استحقاقهم العذاب وحلوله بهم "[1].

ولما كان الصّد عن دعوة الله تعالى ومنع الناس من التعبد في بيت الله الحرام ليس تكذيباً لرسوله فقط ؛ إنما هو اجتراء على الله تعالى بمنع الناس عن بيته، جاء التوعد بالعذاب في أعلى صور التهديد ؛ حيث أضاف سبحانه العذاب إلى نفسه فقال : " وما لهم ألا يعذبهم الله " فأخبر أنه سبحانه إن أراد بهم العذاب سيولاه بنفسه ليكون العذاب أنكى وأشد ؛ وهذا أبلغ في الفزع والزجر ، لعلهم ينتهوا عن قبائحهم وصدهم الناس عن بيت الله الحرام .

ثم ليان قبح صورتهم وشناعة فعلهم في صدهم العباد عن البيت الحرام جاءت الجملة الحالية " وهم يصدون عن المسجد الحرام " بصورة الفعل المضارع استحضاراً لحالهم في الأذهان وقت صدهم ، فالفعل المضارع يجسد الصورة حاضرة في ذهن المخاطب ، ويسحب عليها طابع التجدد والاستمرار على هذه الحالة ؛ كما أن صيغة " الصدّ " تجسد الغلظة والفظاظة التي قابلوا بها قاصدي المسجد الحرام .

---

(١) التحرير والتنوير ج ٥ ص ٣٣٥ .

كما أن في حذف المفعول من جملة " يصدون " يعطي انطباعاً بشمول صدهم وعمومه فصدهم لم يقتصر على المستضعفين من المسلمين في مكة بل صدوا من جاء من خارج مكة، حتى وصل بهم الأمر أن صدوا النبي ﷺ نفسه وأصحابه معه حين قصدوا العمرة من المدينة عام صلح الحديبية .

ثم وصف المسجد بالحرام في قوله " وهم يصدون عن المسجد الحرام " ليزيد في بيانه شناعة فعلهم " فالحرام " تعني حرمة المكان وقدسيته، لذا لا يسوغ لأحد أن يصد أحداً عنه .

وقوله " وما كانوا أولياءه " جملة في موضع الحال من ضمير " يصدون " لبين افتداءهم في صدهم عن المسجد الحرام ، و تفيد كمال قبح ما صنعوا من الصد . فإن مباشرة الصد عنه مع عدم استحقاقهم للولاية أمر في غاية القبح [1] ونفي الولاية عنهم بصيغة الماضي " وما كانوا " يفيد أنهم لم يستحقوا الولاية من بادئ الأمر، فهم لم يكونوا ولاة البيت ثم نزعت منهم هذه الولاية ؛ لأنهم لم يؤمنوا، ولا ولاية لمشرك على بيت الله الحرام .

ولذلك أكد نفي الولاية عنهم بإثباتها للمتقين بقوله " إن أولياؤه إلا المتقون " فنزلت هذه الجملة في قوله " وما كانوا أولياؤه " منزلة التوكيد المعنوي؛ لأن إثبات الولاية للمتقين نفي ضمني للولاية عن هؤلاء المشركين لكونهم غير متقين ؛ ولذا ساغ الفصل بين الجملتين لما بينهما من كمال اتصال .

وزاد في نفي الولاية عنهم حصر هذه الولاية في موصوف معين " المتقون " بطريق القصر . حيث قصر الولاية على المتقين قصر صفة على موصوف قصراً

(١) يراجع : تفسير أبي السعود ج ٤ ص ٢ .

حقيقياً لحقيقياً . وبذلك تنفي عنهم الولاية نفياً مؤكداً. غير أنهم جاهلون لا يعقلون عاقبة الأمور .

ولذا عقب الآية بقوله " ولكن أكثرهم لا يعلمون" ولم يقل ولكنهم لا يعلمون، ليبان أن فيهم من يعلم عاقبة الأمور، لكن حمله العناد و المكابرة على الصد . كما أن فيهم الأغبياء والجهلة الذين يسايرون وراء هؤلاء العتاة .

أو قد يراد بأكثرهم كلهم كما يراد بالقلة العدم [1] وفي هذا التعليل تسفيه لعقولهم وازدراء لها ووسمها بالغباوة .

ثم يضيف النظم القرآني سبباً آخر لاستحقاقهم العذاب فيعطف على ما سبق قوله " وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ " أي فوق عتوهم وصدهم للقاصدي البيت الحرام لم يقوموا هم بحق هذه العبادة بل كانت عبادتهم لا ترقى فوق المكاء والتصدية .

والمُكاء : هو مصدر من مصادر الأصوات كالرُغاء والبكاء والنواح وهو تشبيك الأصابع ووضعها في الفم للتصفير بها .والتصدية هي التصفيق مشتقة من الصدى وهو الصدى الذي يردده الهواء [2] .

هذه هي صفة صلاتهم وعبادتهم لا تزيد على ذلك ؛ولذلك حصرها بطريق القصر بما وإلا قصر موصوف على صفة . فقد قصر الصلاة على كونها مكاءً وتصدية لا تتجاوز غير ذلك إلى أي صورة أخرى من صورة العبادة الصحيحة .

(١) يراجع : تفسير أبي السعود ج ٤ ص ٢٠ .
(٢) يراجع : لسان العرب ج ٣ ص ٢٤٥ .

وتأمل روعة التعبير القرآني البليغ حيث وصفهم بأنهم وضعوا المكاء والتصدية موضع الصلاة التي ينبغي أن تؤدى عند البيت، فكانوا كالأنعام التي لا تفقه معنى العبادة ولا تعرف حرمة بيوت الله ، وإطلاق لفظ الصلاة المضافة إليهم على المكاء والتصدية من باب المشاكلة التقديرية ، لأنهم لما صدوا المسلمين عن الصلاة وقراءة القرآن في المسجد الحرام كان من جملة طرائق صدهم أنهم كانوا يحاكون قراءة المسلمين وصلاتهم بالمكاء والتصدية[1] .

فلما وصل الأمر في الاستخفاف إلى هذا الحد استحقوا العذاب، ولذا عطف بالفاء التي تقتضي التعقيب الفوري " فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون " والمقصود بالعذاب هنا ما حل بهم يوم بدر من قتل وأسر ، والأمر هنا " فذوقوا " خرج إلى معنى الإهانة والتوبيخ والتغليظ .

وإطلاق الإذاقة " فذوقوا " على ما وجدوه من آلام القتل والأسر على سبيل الاستعارة ، حيث شبه ما يجده المعذب من آلامه بما يشعر به ذائق الطعام من أثر الطعام في فمه، ثم استعار الإذاقة لما يجدونه من ألم ،لأن الإذاقة مشعرة بشدة الإصابة، ثم اشتق من الإذاقة " ذوقوا " على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية .

وقوله" بما كنتم تكفرون " علة لاستحقاقهم العذاب " فأعمالهم السابقة من صدهم المسلمين عن المسجد الحرام واستخفافهم بالعبادة وجعلها محصورة في التصفير والتصفيق كفر بين يستحق العذاب .وتقدير الكلام" فذوقوا العذاب

---

(١) يراجع : صفوة التفاسير ج ١ ص ٥٠٥ ، والتحرير والتنوير ج ٥ ص ١٣٩ .

بكفركم " ، لأن ما مصدرية لكن أولى أن تجيء التعبير بهذه الصورة بالفعل المضارع لإفادة الاستمرار في الكفر المتواصل منهم .

إذن فالصد عن بيت الله الحرام ومنع الناس من العبادة فيه فعلة شنعاء يستحق صاحبها العذاب القريب العاجل فوق ما أعد له من عذاب في الآخرة لأن الذي يصد الناس عن بيت الملك إنما يجترئ على الملك نفسه . والبيت الحرام هو بيت الملك، ومن يصد الناس عنه إنما يجترئ على صاحب هذا البيت فيستحق ما يزاد عليه من عقابه .

المبحث الثالث

بلاغة القرآن في بيان بشرى النبي ﷺ بدخول المسجد الحرام وجعله قبلة للمسلمين إلى قيام الساعة

البيت الحرام له مكانة عظمى في قلوب العرب وهم في جاهليتهم قبل الإسلام فقد كانوا يعدونه عنوان مجدهم القومي . ولما جاء الإسلام أراد الله أن يستخلص القلوب له ويجردها من التعلق بغيره ويخلصها من كل نعرة أو عصبية جاهلية وأراد أن يجعل ارتباطهم بالبيت الحرام أو بغيره على اعتبار أن الله أراد لهم ذلك وأنهم بهذا يستسلمون لله تبارك وتعالى . ولذلك فقد نزعهم الله نزعًا من الاتجاه إلى البيت الحرام واختار لهم الاتجاه – فترة – إلى المسجد الأقصى ليخلص نفوسهم من رواسب الجاهلية ومن كل ما كانت تتعلق به في الجاهلية وليظهر من تبع الرسول إتباعًا مجردًا من كل إتجاه آخر ، إتباع الطاعة الواثقة الراضية المستسلمة ، فقد أمر ﷺ بعد الهجرة إلى المدينة أن يتوجه في صلاته إلى البيت المقدس فصلى بالمسلمين ستة عشر شهرا أوسبعة عشر شهرا نحو المسجد الأقصى . كما وضح في الحديث " عن البراء رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم على بيت المقدس ستة عشر شهرا أو سبعة عشر شهرا. وكان يعجبه أن تكون قبلته قبل البيت "[1].

وقد حكي الله سبحانه الحكمة من تحويلهم عن البيت الحرام فترة وذلك ليختبر قلوب المؤمنين ومدي استسلامهم لأمر الله ومدي اتباعهم مع الرسول ﷺ فقال : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ ﴾ ١٤٣ البقرة .

---

(١) صحيح البخاري كتاب الإيمان باب الصلاة ج ١ ص ٢٣ حديث رقم ٤٠ .

حتى إذا استسلم المسلمون لأمر الله وثبت المؤمنون على أمر الله تعالى واستقبلوا القبلة التي وجههم إليها رب العزة تبارك وتعالى، صدر الأمر الإلهي الكريم بالاتجاه إلى البيت الحرام ليرد المسلمين إلى قبلة يحبونها ويرضونها ويربط قلوبهم بحقيقة أخري مرتبطة بهذا البيت ،وهي حقيقة الإسلام حقيقة أن هذا البيت بناه إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ليكون خالصا لله ، وليكون تراثا للأمة المسلمة التي نشأت تلبية لدعوة إبراهيم ربه يبعث في بيته رسولا منهم بالإسلام .

كما أنه كان من الحكمة في تحويل هذه القبلة إلى البيت الحرام رد مزاعم اليهود حينما كانوا يقولون أن محمدًا وأصحابه يتبعون قبلتنا وهو دليل علي أننا علي الحق . وسوف يتبعون ديننا . وهذا ما دفع النبي صلي الله عليه وسلم أن تكون عنده رغبة قوية أن يوجهه ربه إلى قبلة غير قبلة اليهود ، فكان ﷺ وسلم يقلب وجهه في السماء ولا يصرّح بدعاء تأدباً مع ربه وتحرجاً من أن يقترح شيئا عليه [1].

وقد أجابه ربه إلى ما يرضيه وأذن له في التوجه إلى القبلة التي تعلق بها قلبه وهي قبلة أبيه إبراهيم فأنزل الله عز وجل : ﴿ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ البقرة (١٤٤) .

ويقول الإمام الآلوسي " قد نري ....." أي كثيرا ما نري تردد وجهك وتصرف نظرك في جهة السماء متشوقا للوحي ، وكان رسول الله ﷺ يقع في قلبه ويتوقع من ربه أن يحوله إلى الكعبة لما أن اليهود كانوا يقولون يخالفنا محمد

---

(١) يراجع في ظلال القرآن ج ١ ص ١٢٦ وما بعدها .

وتبع قيلنا ، ولما أن الكعبة قبلة أبيه إبراهيم ، أقدم القبلتين ، وأدعى للعرب إلى الإيمان " [٢] .

نعم لقد تشوق صلي الله عليه وسلم إلى رده إلى قبلة أبيه إبراهيم وكان في قلبه أن الله سيرده إلى هذه القبلة ؛ ولذلك كثر تقليب وجهه في جهة السماء انتظارا للوحي .. وقد اتضح تلهف النبي صلي الله عليه وسلم علي ذلك من قوله " قد نرى تقلب وجهك " باستخدام قد الداخلة علي المضارع للدلالة علي التكثير، فقد قال النحاة أن من معاني قد أنها تفيد معنى التكثير إذا دخلت علي الفعل المضارع واستشهدوا علي ذلك بالآية التي مضت " قد نرى تقلب وجهك " وقالوا: أن الكثرة هنا متصلة بالتقلب وليس بالرؤية ؛ لأن الرؤية بالنسبة لله تعالى صفة قديمة وتكثير القديم باطل عند أهل السنة [٢] .

كما أن صفة " تقلب " وما فيها من معنى المبالغة تساعد علي تصوير كثرة التفاتات النبي ﷺ وتحريك نظره في جوانب السماء أملاً في نزول الوحي المبشر بتحويل القبلة ؛ إذا أن " تقلب " مصدر للفعل " قلّب " مضعف العين بمعني حول [٣] .

---

(١) روح المعاني ج ٢ ص ٨ .

(٢) يراجع مغني اللبيب لابن هشام ج١ ص ٣٣١ ط دار الفكر الطبعة السادسة تحقيق د / مازن مبارك .

(٣) يراجع مختار الصحاح ص ٥٤٧ مادة (قلب) المطبعة الأميرية بالقاهرة الطبعة الخامسة .

ورأى فريق آخر من العلماء أن قد هنا بمعني التحقيق والتأكيد وعلي ذلك يكون الفعل " نرى " لفظه مستقبل والمراد منه المضي بمعني قد رأينا كما قال الإمام العكبري [١] .

وقد أشار النحاة إلي معنى التحقيق والتأكيد فقال الزجاجي " ومعناه – أي قد – التحقيق مع المضارع . قال الخليل هي لقوم يتوقعون أمراً فيقال لهم قد كان " [٢] .

وعلي كلا الرأيين فالكلام مستقيم معناه في هذه الآية ، إلا أن معنى التحقيق هنا يكون معلوم بطريق الكناية ، بمعني أنه أريد منه لازم الرؤية وهو إنجاز ما كان يتوقعه صلي الله علية وسلم من تحويل القبلة ودفع الاستبطاء عنه .

وقد مال إلي هذا الرأي من المفسرين الشيخ الطاهر بن عاشور فقال : " وقد في كلام العرب للتحقيق، ألا ترى أن أهل المعاني نظّروا " هل " في الاستفهام بقد في الخبر فقالوا : إنّ هل لطلب التصديق ، وحرف قد يفيد تحقيق الفعل فهي مع الفعل بمنزلة إن مع الأسماء " .

ثم قال " ولما كان علم الله بذلك مما لا يشك فيه النبي صلي الله عليه وسلم حتى يحتاج لتحقيق الخبر به ،كان الخبر به مع تأكيده مستعملاً في لازمه علي وجه الكناية لدفع الاستبطاء عنه " [٣] .

---

(١) يراجع التبيان في علوم القرآن لأبي البقاء العكبري ج١ ص ١٢٥ مطبعة الحلبي تحقيق علي محمد البجاوي .

(٢) حروف المعاني للزجاجي ج ١ ص ١٤ ط مؤسسة الرسالة بيروت تحقيق علي توفيق الحمد .

(٣) التحرير والتنوير ج ٢ ص ٢٦ .

وعلي ذلك يكون الغرض من مجيء " نرى " بصيغة المضارع - لفظا - مع أن المراد منه المضى الدلالة علي تجدد هذا اللازم - وهو إنجاز متمناه تأكيداً لذلك اللازم [1].

وبعد أن مهد لأمر التحويل بهذه الكناية اللطيفة عقب بإنجاز الوعد صراحة فقال : " فلنولينك قبلة ترضاها " فالفاء فاء التفريع أو فاء التعقيب، أي قد علمنا ورأينا ما كان منك من تقليب وجهك حيال السماء انتظارا للوحي، فلنوجهنك إلى قبلة ترضاها وتحبها .

والمعنى أن هذه التولية تجاه الكعبة ستحصل عقب هذا الوعد، وقد أكد هذا الوعد بأداتي تأكيد عقب فاء التعقيب ، وهما اللام ونون التوكيد المشددة مبالغة في تأكيد إنجاز هذا الوعد، وتمشياً مع شدة الشوق والتلهف التي كان عليها ﷺ قبل هذا الوعد ،وذلك غاية في اللطف والإحسان .

بل أن بعض المفسرين قال إن اللام هنا موطئة للقسم فهي علي إضمار قسم محذوف دلت عليه اللام، والمعني "والله لنولينك" مبالغة في وقوعه [2].

وقد أضاف الإمام الآلوسي نكتة لطيفة، وهي الحكمة من تقديم الوعد " فلنولينك " علي الأمر بالتوجه إلى القبلة مباشرة " فول وجهك " وقال: "وجاء الوعد قبل الأمر لفرح النفس بالإجابة ،ثم بإنجاز الوعد، فيتوالى السرور مرتين " [3].

---

(١) التحرير والتنوير ج ٢ ص ٢٧ .

(٢) براجع تفسير أبي السعود ج ١ ص ١٧٤ .

(٣) براجع روح المعاني ج ٢ ص ٨ .

وجاء لفظ " قبلة " في صورة النكرة لأنه لم يعرف قبلها ما يقتضي أن تكون معهودة فتعرف باللام ، وليس في اللفظ ما يدل على أنه صلى الله عليه وسلم كان يطلب قبلة معينة [1].

وفي التعبير بقوله " ترضاها " دون تحبها أو فوادها إيماء بأن ميل النبي ﷺ إلى هذه القبلة ليس لهوى في نفسه أو لمصلحة عارضة قد تنتهي، فالرضا " وصف مشعر بمحبة ناشئة عن تعقل ؛ هذا ما يناسب مع مقامه صلى الله عليه وسلم فإن رضاه وميله إلى هذه القبلة لأنها قبلة أبيه إبراهيم الذي بناها لتكون شعارا للتوحيد الخالص ، كما أن قلوب العرب وغيرهم معلقة بها فهي أدعى إلى إتمام واستسلامهم [2]،كما أن فيها إيماءً بإقراره للتوجه لهذه القبلة، لأن الرضي وصف المقر لما يريد . فكل واقع بإرادة لا يكون رضا إلى أن يستدرك الإقرار . فإذا عطف الرفع والتغيير فهو مراد غير مرضي " [3].

وقوله : ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ الفاء لتفريع الأمر بالتولية على الوعد الكريم في قوله " فلنولينك قبلة ترضاها " . وفي تخصيص الوجه مع أن التولية تكون بجميع الجسد لأنه مدار التوجه ومعياره ، ولأن الوجه أشرف الأعضاء ، وبالوجه تمتاز بعض الذات عن بعض ، فلهذا السبب لم يعبر عن كل الذات بالوجه ، فهو تعبير مجازي من قبيل المجاز المرسل حيث عبر بالبعض وأراد الكل .

وقوله : ﴿ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ أي ناحية المسجد الحرام أي تكون قبلتك في الصلاة أن تتوجه نحو المسجد الحرام ، والمقصود الاتجاه إلى الكعبة ذاتها

---

(١) روح المعاني ج ٢ ص ٨ .

(٢) براجع التحرير والتنوير ج ٢ ص ٢٨ - ٢٩ .

(٣) نظم الدرر ج ٢ ص ٢٦٦ .

عبر بالمسجد الحرام دون الكعبة للتوسعة ؛ فإن البعيد عن المسجد الحرام إذا كلف أن يتوجه إلى عين الكعبة كان ذلك تكليفاً بما لا يطاق ، فكان المقصود التوجه إلى جهة الكعبة لا إلى عينها [1].

كما أن كلمة شطر تدل بمعناها أن المقصود هو الكعبة ، لأن الشطر في اللغة نصف الشيء تقول شطرت الشيء : أي جعلته نصفين " [2]. فلما أضيف الشطر إلى المسجد الحرام والمسجد مكان ، اقتضى أن نصفه عبارة عن نصف مقداره ومساحته وذلك وسطه ، وجعل شطر المسجد الحرام كناية عن الكعبة ؛ لأنها واقعة من المسجد الحرام في نصف مساحته من جميع الجوانب [3].

فعلى كلا المعنيين لكلمة " شطر " سواء بمعنى ناحية وجهه أو بمعنى نصف الشيء فالمقصود التوجه إلى جهة الكعبة المشرفة . وفي وقوع قوله " الحرام " صفة لـ " المسجد " تعظيم وتفخيم لشأن المسجد ؛ فالحرام مصدر حرم يحرم استعمل صفة بمعنى المحرم ، أي الممنوع منع تعظيم وحرمة ، فإن مادة التحريم تؤذن بتجنب الشيء، فيفهم في كل مقام بما يناسبه ، وسماه الله حراماً لحرمته، حيث لم يوطأ قط إلا بإذنه ، ولم يدخل إلا دخول تعبد وزلفة ، فكان حراماً على من يدخله دخول متكبر أو متجبر [4].

---

(١) يراجع تفسير الرازي ج ١ ص ١٢٤ .

(٢) يراجع لسان العرب ج ٤ ص ٤٠٧ .

(٣) التحرير والتنوير ج٢ ص ٢٨ .

(٤) يراجع نظم الدرر ج١ ص ٢٢٦ وإعراب القرآن وصرفه وبيانه لمحمود صافي ج١ ص ٢٩٧ .

إلى هنا الكلام موجه إلى شخص النبي ﷺ على الرغم من أن تحويل القبلة لكل المسلمين وليس له خاصة ، إلا أنه خص هنا بالخطاب تعظيماً لجنابه وإيذانا بإسعاف مرامه .

ثم بعد ذلك عمَّم الخطاب للمؤمنين مع التعرض لاختلاف أماكنهم تأكيداً للحكم وتصريحاً بعمومه لكافة العباد من كل حاضر وباد ،وحثاً للأمة على المتابعة فقال : ﴿ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾ أي من أي جهات الأرض التي أوردكم إياها فولوا . فـ " حيثما " اسم شرط جازم في محل نصب ظرف مكان متعلق ب " ولو " التي هي جواب الشطر . والفاء رابطة للجواب بالشرط .

يقول الشيخ ابن عاشور " ولما خيف إيهام أن يكون هذا الحكم خاصاً به أو أن تجزيء فيه المرة ، أو بعض الجهات كالمدينة ومكة ، أريد التعميم في المكلفين وفي جميع البلاد ،ولذلك جيء بالعطف بالواو . وكان يكفي أن يقول وولوا وجوهكم شطره فزيد عليه ما يدل على تعميم الأمكنة تصريحاً وتأكيداً لدلالة العموم المستفاد من إضافة شطره إلى ضمير المسجد الحرام ، وتأكيداً للدلالة الأمر التشريعي على التكرار ، تنويهاً بشأن هذا الحكم ، فكأنه أفيد مرتين بالنسبة للمكلفين وأحوالهم ، أولاهما إجمالية والثانية تفصيلية " [1].

فإعادة الخطاب للمؤمنين بعد تخصيص النبي صلى الله عليه وسلم بالخطاب هو في حد ذاته تأكيد على أمر تحويل القبلة واستقرارها في التوجه إلى البيت الحرام ، لأن الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم في مثل هذا الأمر خطاب للأمة

---

(١) التحرير والتنوير ج٢ ص ٣٠ .

كلها ، وإعادة الخطاب مرة أخرى للتأكيد مع إفادة العموم في ذلك لكافة العباد وفي جميع الجهات ؛ وحتى لا يلتفت المسلمون إلى تشكيك اليهود وغيرهم من أهل الكتاب في هذه القبلة ، على الرغم من أنهم كانوا يعلمون صدق النبي صلى الله عليه وسلم حسب البشارات التي جاءت في كتبهم .

ولذلك أخبر الله عنهم بأنهم يعلمون أن أمر التحويل هو أمر حق من عند الله علماً جيداً فقال : ﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ أي أن اليهود والنصارى ليعلمون علماً مؤكداً أن أمر التحويل هو الحق لا غير من الله تعالى .

والدقق في نظم هذه الجملة ليتأكد له ذلك من خلال أدوات التوكيد التوالية " إن " ثم "اسمية الجملة " ثم " اللام" الواقعة في خبر أن ثم التعبير عنهم بالاسم الموصول " الذين أتوا الكتاب " ثم بطريق القصر في قوله " أنه الحق " .

فالتأكيد بأكثر من مؤكد يفضح حالهم ، وأنهم إنما يفعلون ذلك ليوهموا المسلمين أنهم غير معتقدين ذلك؛ مع أنهم في الواقع يعلمون أن استقبال القبلة التي هي البيت الحرام هي الحق من ربهم .

والضمير في " أنه الحق " يعود إلى الاستقبال " أي استقبال الكعبة " كما أن الحديث عنهم بوصفهم أنهم أوتوا الكتاب بدلاً من اسمهم" اليهود والنصارى" يحمل كمّاً كبيراً من التوبيخ والتشنيع عليهم ، فلو كانوا ينكرون ذلك عن جهل لكان الأمر هيناً ؛ لكن الطامة أنهم عندهم علم الكتاب المثبوت فيه أن من بشارات محمد صلى الله عليه وسلم أنه صاحب قبلة البيت الحرام ، ويعلمون أن ذلك حق من الله . ولذلك جاء التأكيد عليه بطريقة القصر " أنه الحق " والقصر هنا قصر

بطريقة تعريف الطرفين لقصر أمر الاستقبال على كونه الحق لا غير ذلك قصر صفة على موصوف قصراً حقيقيًا تحقيقيًا . فالمقصور هو الضمير العائد إلى الاستقبال . والمقصور عليه هو الموصوف وهو " الحق من ربهم " ؛ ولذلك لما تأكد علمهم علماً جازماً بأنه الحق من ربهم استوجبوا التهديد والوعيد في قوله : ﴿ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ .

فالخبر هنا ليس الغرض منه الفائدة؛ فقد تأكد عند المؤمنين إحاطة علم الله تعالى باليهود والنصارى وبغيرهم . فلم يحتاجوا إلى أن يعلموا ذلك فاقتضى ذلك أن يكون في الأمر خروج على خلاف مقتضى الظاهر لغرض التهديد والوعيد لهؤلاء اليهود .

وقد جاء الوعيد بقوله " عما يعملون " بالياء دون التاء إشارة إلى الإعراض عنهم ؛ فهم لا يستحقون توجيه الكلام إليهم مباشرة ؛ فهم لتماديهم في الباطل استوجبوا الإعراض عنهم والإقبال على غيرهم ، كما أن فيه تسلية وتثبيتا للمؤمنين وتقوية لعزائمهم حيث أكد لهم أنه مطلع على كيد هؤلاء اليهود الملاعين" [1].

ولما أخبر الله عن هؤلاء اليهود بأنهم يعلمون علم اليقين أن هذه القبلة هي الحق من ربهم ، وأنهم ما منعهم عن الاعتراف بذلك إلا الجحود والاستكبار؛ أخبر أنهم متمادون في ذلك ولن يتبعوا النبي صلى الله عليه وسلم ولو جاءهم بكل آية ، فهم يعرفون النبي ﷺ كمعرفتهم لأبنائهم ومع ذلك هم مصرون على العناد والاستكبار ، وعلى ذلك يكون كلامهم في أمر القبلة من باب التشكيك وتوهين عزم المؤمنين .

---

(١) راجع نظم الدرر ج ١ ص ٢٦٩

لذلك اقتضى الحال أن يعاد الحديث عن أمر القبلة مرة أخرى ليأكد في نفوس المؤمنين أيما تأكيد فجاء بعد ذلك قوله : ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ، وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ البقرة ١٤٩ - ١٥٠ .

يقول الإمام البقاعي : " ولما عظم من شأن القبلة انتشار أقوالهم وتنوع شغبهم وجدالهم وكانوا أهل كتاب . كان الحال مقتضياً لمزيد تأكيد لأمرها، تعظيماً لشأنها وتوهية لشبه السفهاء فقال تعالى ثانياً معبراً بعبارة مشعرة بإمامته ﷺ وانتظار المصلين له " ومن حيث خرجت....." [1].

فقوله : ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ عطف على قول : ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ في الآية السابقة " قد نرى تقلب وجهك في السماء .." وذلك عطف حكم على حكم من جنسه للتأكيد على أمر القبلة والإعلام بأن أمر القبلة واستقبال الكعبة في الصلاة المفروضة لا تهاون فيها ولو في حالة السفر .

فالمراد من أي مكان خرجت مسافرًا فول وجهك شطر المسجد الحرام ، وذلك لأن السفر مظنة المشقة في الاهتداء إلى الكعبة ، فهو تأكيد لأمر التحويل وتصريح بعدم التفاوت في حالتي السفر والحضر [2].

---

(١) نظم الدرر ج١ ص ٢٧٦ .

(٢) راجع تفسير أبي السعود ج١ ص ١٧٧ .

ونلحظ هنا أن الأمر أعيد بصيغة تخصيص الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم إذ أنه هو الذي كان يقلب وجهه في السماء تطلعا لتحويل القبلة ، فناسب أن يعاد الأمر مرة أخرى ليطمئن أن أمر التحويل قد ثبت ، وزيد على ذلك تعميم هذا التحويل حتى يشمل السفر والحضر وأينما كان في أي مكان .

ولما كان الأمر مؤكداً لا رجعة فيه ،وأنه صلى الله عليه وسلم مأمور بذلك ولا خيار في الرجوع إلى القبلة الأولى ، أكد الكلام فعطف عليه قوله : ﴿ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ﴾ .

يقول الإمام البقاعي : " ولما كان التقدير : فأنت مأمور بذلك لئلا يظن أن ذلك إنما عمل لتطلعه صلى الله عليه وسلم عليه وهو فيه بالخيار فيظن أن الرجوع إلى القبلة الأولى مصلحة لما انتشر في ذلك من الكلام الذي تقذ في القلوب نفوذ السهام ، عطف عليه قوله " وإنه للحق من ربك " مؤكداً له بأنواع من التأكيد مضيفاً له إلى صفة الإحسان بإحسان التربية والنظر في إدبار الأمور وأحكامها " [1].

ولما ثبت وتأكد أمر القبلة فلا رجعة فيه تناسب أن يأتي التحذير من التهاون فيها فقال " وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ " والخطاب هنا بصيغة الجمع ،توجه إلى جماعة المسلمين ، لأنه هو صلى الله عليه وسلم مبرأ من أمر التغافل في الصلاة . فهو أسلوب عبري الغرض منه التهديد والوعيد والتحذير من التهاون والتغافل في أمر القبلة . فوجب التحري لأمر القبلة بالبدن وتحري التوجه بالقلب إلى الله، فمن التفت بقلبه إلى شيء من الخلق في صلاته فهو مثل الذي استدبر بوجهه عن شطر قبلته [2].

---

(١) نظم الدرر ج ١ ص ٢٧٦ .

(٢) المرجع السابق ج١ ص ٢٧٦ .

بعد ذلك أعاد المولى تبارك وتعالى الأمر بالاتجاه إلى القبلة للمرة الثالثة فقال : ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾ .

وقد تعددت آراء العلماء في حكمة هذا التكرار فمنهم من قال أن هذا التكرار لتأكيد أمر القبلة وتشديده ، لأن النسخ من مظانّ الفتنة والشبهة وتسويل الشيطان ، فالأحرى أن يؤكد أمرها مرة بعد مرة ، من هنا كرر عليهم ليثبتوا ويعزموا ويجدوا " [1].

ومنهم من قال أن تكرار الحكم هنا لتعدد علله ، فإنه سبحانه ذكرا لتحويل ثلاث مرات وذكر له ثلاث علل . فعلة المرة الأولى ابتغاء مرضاته وعلة الثانية جرياً على العادة والإلهية على أن يؤتى كل أهل ملة وجهة يستقبلونها . وعلة المرة الثالثة : دفع حجج المعاندين والمخالفين ، فإن التولية إلى الكعبة تدفع احتجاج اليهود بأن المنعوت في التوراة قبلته الكعبة لا الصخرة ، وهذا النبي يصلي إلى الصخرة فلا يكون النبي الموعود به ، وبأنه ﷺ يدعي أنه صاحب شريعة ويتبع قبلتنا ، وتدفع احتجاج المشركين بأنه ﷺ يدعي ملة إبراهيم ويخالف قبلته [2].

والذي أراه أن التكرار هنا في هذا الموضع يجمع كل الحكم التي نص عليها العلماء، فهو تأكيد وتشديد على استقرار أمر القبلة، وخاصة أن اليهود أثاروا حول هذه القضية جدلاً شديداً قصدوا من ورائه تشكيك المسلمين في عقيدتهم، وحاولوا زعزعة الإيمان في قلوبهم . كما أن في التكرار دفع لحجج اليهود والمشركين، فاليهود كانوا يثيرون شبهة يقولون فيها : كيف يدعي أنه صاحب

(١) يراجع الكشاف للزمخشري ج١ ص ٣٢٢ وتفسير أبي السعود ج١ ص ١٧٨ .

(٢) يراجع تفسير البيضاوي ج١ ص ١٥٦

شريعة ويتبع قبلتنا ، أو أنه ما دام يتبع قبلتنا فسوف يتبع ديننا ، كما أنه رد على المشركين الذين قالوا إنه ترك قبلة أبيه إبراهيم .

وقد بانت هذه الحكم التي أشار إليها العلماء واتضحت من خلال بقية الآية وهي قوله : ﴿ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ﴾ فهي علة لطلب التوجه إلى القبلة في قوله " فولوا وجوهكم ... ، أي شرعت لكم ذلك لتدحض حجج الأمم عليكم، والاستثناء هنا منقطع معناه : لكن الذين ظلموا – والمقصود بهم أهل مكة – يشغبون عليكم ويقولون بدا له أمر فرجع إلى قبلة آبائه ويوشك أن يرجع إلى دينهم [1].

وبعد أن أعلم الله المؤمنين بما سيكون من معاندي مكة أرشدهم على ما فيه صلاح أمرهم فقال : ﴿ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ أي فلا تخافوا الظالمين لأنهم لا يقدرون على نفع أو ضر .

فالنهي هنا " فلا تخشوهم " والأمر " واخشوني " قد خرجا إلى معنى النصح والإرشاد .

وقوله " ولأتم نعمتي عليكم ولعلكم تهتدون " تعليل ثان لقوله " فولوا وجوهكم شطره معطوف على قوله : " لئلا يكون للناس عليكم حجة " على نفس الاعتبار السابق ، وهو تعليل الامتثال أي: أمرتكم بذلك لأتم نعمتي عليكم باستيفاء أسباب ذلك التمام ومنها ، أن تكون قبلتكم إلى أفضل بيت بنى لله تعالى ، ومعلوم أن تمام النعمة بالامتثال لما أمرنا وجماع ذلك الاستقامة . وبها دخول الجنة " [2].

(١) يراجع تفسير الكشاف ج ١ ص ٣٢٢ .

(٢) التحرير والتنوير ج ٢ ص ٤٧ .

" ولعلكم تهتدون " ترجي خرج عن معناه الحقيقي ؛ لأن الترجي يكون من الأدنى إلى الأعلى ؛ وقد جاء هنا على طريقة الكناية، كناية عن قرب ذلك وتوقعه ؛ فكمال هدايتكم قريب جداً بامتثالكم في استقبال القبلة والاستقامة عليها . والله اعلم .

ولم يكتف الكفار من أهل مكة بأنهم امتنعوا عن الإيمان بما جاء به النبي ﷺ متعللين بخوفهم من أن يتخطفهم الناس حولهم ؛ بل أصروا على عناد والنبي ﷺ وتكذيبه وصدّ المؤمنين عن الدخول إلى البيت الحرام لأداء العمرة . فقد ذكر أصحاب السير أن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه قصدوا مكة في سنة ست من الهجرة يريدون العمرة، فخرجوا وخرج معهم عدد كبير من المسلمين، فلما اقتربوا من مكة وعلمت قريش أعدوا العدة لقتاله . فأرسل إليهم أنه لم يأت لقتال وإنما جاء معتمرا ولكن قريش أبت أن تدخلهم مكة ، وبعد محاورات ومناقشات استقر الأمر على أن يرجع رسول الله ﷺ وأصحابه هذا العام ويعودوا العام المقبل . واشترطوا وكتبوا بذلك كتابا واشترطوا فيه شروطاً جائرة على النبي ﷺ وأصحابه ، وقبلها النبي صلى الله عليه وسلم حقناً للدماء على الرغم من كراهية كثير من أصحابه لذلك ؛ لكن مشيئة الله تعالى أرادت ذلك ليكون مقدمة فتح عظيم ونصر مبين للمسلمين . وقد عاد رسول الله ﷺ من هذا العام ولم يعتمر ونزلت عليه سورة الفتح تبشر بالنصر والفتح المبين [1] .

---

(١) يراجع زاد المعاد لابن القيم ج٢ ص ١٧٨ ط دار الريان للتراث و يراجع فقه السيرة للبوطي ص٢٤٥ وما بعدها ط دار الفكر الطبعة السابعة .

وقد ذكر الله عز وجل طرفا من بأس صد المشركين للنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه في سورة الفتح فقال : ﴿ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَؤُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ ٢٥ سورة الفتح .

ثم ذكر بشرى للنبي ﷺ وأصحابه بأنهم سيدخلون المسجد الحرام ويؤدون العمرة في أمن لا يخافون أحدًا فقال :

﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ ٢٧ سورة الفتح .

وقد استهل الحديث في قوله "هم الذين كفروا" بضمير الغائب المشار به إليهم لاسترعاء السمع لما يرد بعده من خبر فيه سبّة لهم ؛ فإنهم هم لا غيرهم الذين كفروا ، وزادوا على ذلك أنهم صدوكم عن المسجد الحرام وصدوا الهدى وهم أولى الناس بالحفاوة بمن يعتمرون ؛ وهم يزعمون أنهم أهل حرم الله وأنهم يقبلون كل زائر للكعبة من جميع الأديان فلا عذر لهم في منع المسلمين .

فمقصود الضمير هنا " هم " تنبيه المخاطبين على وصمة العار التي لحقت هؤلاء الكفار بصدهم للمؤمنين عن الحرم ، ومجيء المسند " الذين كفروا " خبراً عن المسند إليه " هم " بصيغة اسم الموصول لعلة هي التمكن من وصفهم بالكفر بصيغة الماضي لبيان أن صفة الكفر لازمة لهم من قديم ، وأن هذه الصفة هي التي دفعتهم إلى صدكم عن المسجد الحرام .

ولما كان المعرف بالموصولية في قوة المعرف بأل صار المسند إليه " هم " و المسند " الذين كفروا " يفيدان القصر بطريقة تعريف الطرفين لقصد المبالغة لكنافهم في الكفر بصدهم المعتمرين عن المسجد الحرام .

والمقصود من الصلة هنا هو جملة " وصدوكم عن المسجد الحرام " وإنما ذكر وصفهم بالكفر أولا من باب الإدماج لبيان علة الصد وهي تأصلهم في صفة الكفر مبالغة في إظهار سُبتهم وما يعيرون به .

ثم زاد الله في التشنيع عليهم بعطف " والهدي معكوفا أن يبلغ محله" علي "وصدوكم عن المسجد الحرام " أي وصدوا الهدي الذي يهدي للكعبة أن يبلغ المنحر الذي ينحر فيه بعد أن قيد وحبس لهذا الغرض .وقد صور شناعة فعلهم قوله " معكوفا " أي محبوسا ومجيئها حالا من الهدي .

وقوله " أن يبلغ محله " بدل اشتمال من الهدي : أي أنهم أوقفوا بلوغ الهدي إلى محله ويجوز أن يكون معمولا لحرف جر محذوف وهو " عن " أي عن أن يبلغ محله [1] .

والكلام هنا علي تقدير حذف مضاف أي صدوا أصحاب الهدي أن يبلغوا به محله الذي ينحر فيه . إذا أنهم في الأصل لم يصدوا الهدي نفسه ؛ وإنما صدوا أصحابه فكان ذلك منعاً للهدي أن يذبح في مكانه المخصص له . حيث اضطر المسلمون أن ينحروا هداياهم في الحديبية .

وبذلك بان الغرض من حذف المضاف وهو المبالغة في التشنيع علي هؤلاء الكفار ؛ حيث إنهم بصدهم الهدي عن بلوغ الحرم عطلوا شعيرة من شعائر الله . في حين أنهم يزعمون أنهم أهل الحرم الذي يقومون علي شئون زائريه وقاصديه .

---

(١) يراجع التحرير والتنوير ج ٢٦ ص ١٨٨ .

وإنك لتستشعر شناعة وبشاعة ما فعلوا أكثر وأكثر بعد أن رأى رسول الله ﷺ في المنام – ورؤيا الأنبياء وحي – أنه دخل هو وأصحابه الحرم وأدّوا مناسك العمرة ؛ فلما قص ﷺ الرؤيا علي أصحابه استبشروا وفرحوا . لكن المشركين عكروا علي المسلمين فرحتهم وخيبوا آمالهم في دخول مكة من عامهم . وسنحت الفرصة للمنافقين أن يشككوا في رؤيا رسول الله صلي الله عليه وسلم ويقولوا :والله ما دخلنا المسجد الحرام ولا حلقنا ولا قصرنا فأين الرؤيا ؟ ! يريدون بذلك تثبيط عزم المؤمنين وتشكيكهم في الوحي ، لكن أنّي لهم ذلك ! والله مؤيد رسوله وناصر دينه ، عند ذلك نزل قول الله تعالى : ﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ الفتح ٢٧.

والمعنى كما يقول ابن عاشور : " إن رؤيا رسول الله ﷺ حق ، وأن الله أوحي إليه بها ، وإن لم تقع في تلك القضية فستحقق بعد ذلك ؛ وكان الحكمة في إراءة الله رسوله ﷺ تلك الرؤيا أيامئذ ، وفي إخبار الرسول ﷺ أصحابه بها ؛ أن الله أدخل بذلك علي قلوبهم الثقة بقولهم وتربية الجراءة علي المشركين في ديارهم " [1] .

وقد استهل الكلام بهذه الصيغة المؤكدة من اللام الموطئة للقسم ، وقد التي تفيد التحقيق ثم بالفعل الماضي " صدق " للمبالغة في تأكيد حصول ذلك إبطالا لشبهة المنافقين الذين قالوا فأين الرؤيا ؟ .

---

(١) التحرير والتنوير ج٢٦ ص ١٩٨ .

واللام هنا موطئة لقسم محذوف تقديره :والله لقد صدق الله رسوله الرؤيا : أي أن رؤياه صادقة ، لأن رؤيا الأنبياء وحي ، فالت إلى معنى الخبر فوصف بالصدق لذلك . وهذه طمأنة للمؤمنين بأن ذلك سيكون لا محالة [1].

والباء في قوله " بالحق " للملابسة أي صدقا متلبساً بالحق ، فالجار والمجرور صفة لمصدر محذوف " صدقاً " . فهو صدق متلبس بالحق والحكمة البالغة ، وهو ظهور المتزلزل في الإيمان من الراسخ فيه [2].

وجملة " لتدخلن المسجد الحرام " جواب للقسم المحذوف واقعة موقع عطف البيان من جملة " صدق الله رسوله " لأن معنى " لتدخلنّ " تحقيق دخول المسجد الحرام في المستقبل . فيعلم منه أن الرؤيا إخبار بمدخول لم يعين زمنه فهي صادقة . ولذلك أكد الأمر باللام " لتدخلنّ " وقيل الأحسن أن يكون استئنافاً بيانياً عن جملة " صدق الله رسوله الرؤيا بالحق " فينبغي أن نقف عند ذلك، ثم نستأنف " لتدخلن ..... "[3] . فيكون قوله " لتدخلن " كأنه جواب لسؤال مقدر : ما هي الرؤيا ؟ أو ما تحقيق الرؤيا ؟ فيجاب لتدخلن المسجد الحرام . فيكون الفصل بين الجملتين لشبه كمال الاتصال لوقوع الثانية من الأولى موقع الجواب عن سؤال مقدر .

وقوله " إن شاء الله " جملة معترضة الغرض منها تعليق الوعد بالمشيئة تعليماً للعباد أن يقدموا مشيئة الله بين يدي كل خبر يكون في المستقبل .

---

(١) التحرير والتنوير ج٢٦ ص ٢٩٨

(٢) راجع تفسير الخازن ج ٤ ص ٢٣٠

(٣) التحرير والتنوير ج٢٦ ص ٢٩٩

فالدخول واقع حتم لأن الله أخبر به ؛ ولكن المشيئة يجب أن تظل في نفوس المسلمين في صورتها الطليقة لا يقيدها شيء حتى تستقر في القلوب .... إنه أدب يلقيه الله في روع المؤمنين ليستقر منهم في أعماق الضمير والشعور [1].

وقيل إن اعتراض جملة المشيئة للإشعار بأن بعضهم لن يدخل مكة إما لأنه يموت قبل ذلك أو لأنه يغيب فلا يحضر العمرة في العام القادم [2].

وقوله " آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين " حال من الواو في لتدخلون ، والتحليق والتقصير كناية عن التمكن من إتمام الحج والعمرة وذلك من استمرار الأمن ، أي يحلق من رام الحلق ويقصر من رام التقصير ، لا يعجلهم الخوف عن الحلق فيقتصروا على التقصير [3].

وقوله " لا تخافون " إما أن تكون في موضع الحال فتكون حال مؤكدة لقوله " آمنين " تأكيداً بالمرادف للدلالة على أن الأمن الكامل محقق ،وإما أن تكون استئنافاً بيانياً فتنزل منزلة جواب لسؤال مقدر قبلها ، فكأنه لما قيل لتدخلن المسجد الحرام آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين قيل :فكيف الحال بعد الدخول؟ فأجيب لا تخافون . أي لا تخافون بعد ذلك [4].

وقوله " فعلم ما لم تعلموا " الفاء لتفريع الأخبار؛ عطف "علم ما لم تعلموا "على " لقد صدق " فالترتيب باعتبار التعلق المعنوي بالمعلوم ؛ أي فعلم عليب ما أراه الرؤيا الصادقة ما لم تعلموا من الحكم الداعية لتقديم ما يشهد بالصدق علماً فعلياً [5].

---

(١) في ظلال القرآن ج ٦ ص ٣٣٣٠

(٢) راجع تفسير الخازن ج ٤ ص٢٤٦

(٣) راجع التحرير والتنوير ج ٢٦ ص ٣٠٠

(٤) راجع روح المعاني ج ٢٦ ص ١٢١

(٥) تفسير آيات أحكام ج ٩ ص ١١٣

أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله ولا الشهر الحرام ولا الهدي ولا القلائد ولا آمين البيت الحرام ..... " ثم يعقب بما يشعر بحكمة هذا النهي فيقول " واتقوا الله إن الله شديد العقاب " فالموصوف بهذه الصفة عندما ينهي عن شيء لا بد ان يكون الجزاء منه بكافيء المنهي عنه ؛ والصد عن بيت الله الحرام جريمة كبري تستحق العذاب الشديد ، وفي هذا تناسب رائع بين النهي في بداية الآية والوصف بشدة العذاب في تذييل الآية .

وتارة يستخدم التصريح بالعذاب فهؤلاء الصادين جزاءً وفاقاً لما عملوا فيقول : " وما لهم ألا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام وما كانوا أولياؤه " وذلك عندما زعم المشركون أنهم أولياء هذا البيت يدخلون فيه من شاءوا ويصدون عنه من شاءوا ، فكذبهم الله ونفي عنهم ولاية البيت وتوعدهم بالعذاب خاصة بعد أن زال سبب حجب العذاب عنهم وهو وجود النبي ﷺ بين أظهرهم ،والآن بعد خروج النبي ﷺ من بينهم ونفي الولاية عنهم لم يعد هناك سبب يمنع عنهم العذاب .

رابعاً : في معرض سوق البشري للنبي ﷺ بدخول المسجد الحرام . وجعله قبلة للمسلمين إلي قيام الساعة استخدم الأسلوب القرآني عدة من أساليب التوكيد ، وكان مقتضي ذلك أمران :

الأمر الأول : هو أن قضية تحويل القبلة كانت محل جدل شديد بين اليهود والمشركين من جانب وبين المسلمين من جانب آخر .

فاليهود حينما كانوا يرون النبي ﷺ يصلي إلي بيت المقدس - قبل تحويل القبلة - يحاولون تشكيك المسلمين في عقيدتهم ويقولون : يخالف ديننا ويتبع

قبلتنا ! قاصدين من ذلك إظهار أنهم علي الحق وأن المسلمين علي باطل ، فأراد الله أن يظهر زيفهم ويثبت قلوب المسلمين ويطمئن قلوبهم ، فوجّه الخطاب إلي النبي ﷺ بالأسلوب المؤكد فقال : " فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام " ثم أخبر أن اليهود يعلمون صدق ذلك لكنهم قوم بُهت فقال : " وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم " .

فلما توجه إلي البيت الحرام قال المشركون لقد عاد إلى قبلتنا وسيعود إلي ديننا ، فكان مقتضي ذلك أن يؤكد خبر تحويل القبلة بهذه المؤكدات .

الأمر الثاني : أن كثرة هذه التوكيدات تشير إلي قدر النبي ﷺ عند رب العزة تبارك وتعالي حيث لم يكن من النبي ﷺ سوي التفات وتقليب نظر في السماء رغبة في تحويل هذه القبلة فكانت الاستجابة سريعة بغاء التعقيب التي تفيد السرعة في الاستجابة " قد نري تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام " ثم استخدم القرآن ما يفيد أن هذه البشري قد حسمت وأنها ممتدة لا تتغير إرضاء له ﷺ ، فجاء التوكيد متواليا ، فجاءت اللام الموطئة للقسم بعد الفاء ثم جاءت نون التوكيد الثقيلة في " فلنولينك " ثم جاء التوجيه بصيغة الأمر " فول وجهك شطر المسجد الحرام " مكررا ثلاث مرات ، ثم الأمر للمسلمين جميعا " وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره " كل ذلك ليؤكد عظم قدر النبي ﷺ ومسارعة ربه له فيما يحب قبل أن يسأل .

هذه هي بعض الملامح التي حاولت استخلاصها خلال رحلتي مع هذا البحث المتواضع والذي أسأل الله أن يتقبله مني وينفع به قارئه .

فهرس المصادر والمراجع

١- الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ط دار التراث الطبعة الثالثة.

٢- أخبار مكة للأزرقي تحقيق رشدي الصالح ملحس ط دار الأندلس بيروت ١٩٩٦م .

٣ - أسباب النزول للنيسابوري ط المكتبة التوفيقية بدون .

٤- الأشباه والنظائر للسيوطي ط دائرة المعارف العثمانية الطبعة الثانية ١٣٦٠ هـ .

٥ - البحر المحيط لأبي حيان ط دار الفكر ١٩٩٢ .

٦ - البداية والنهاية لابن كثير ط دارا لغد العربي الطبعة الثانية .

٧ - بديع القرآن لابن أبي الإصبع ت حفني محمد شرف ط المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية .

٨ - التبيان في إعراب القرآن للعكبري مطبعة الحلبي ت محمد علي البجاوي .

٩ - تحرير التحبير لابن أبي الإصبع تحقيق حفني محمد شرف ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

١٠ - التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ط دار سحنون تونس .

١١ - تفسير ابن كثير ط دار إحياء الكتب العربية .

١٢ - تفسير أبي السعود ط دار الفكر بدون .

١٣ - تفسير البيضاوي ط دار إحياء الكتب العربية بدون .

١٤ - تفسير الثعالبي ط مؤسسة الأعلمي بيروت .

١٥ - التفسير الكبير للرازي ط دار الفكر الطبعة الأولي ١٩٨١م .

١٦ - تفسير السلمي ط دار القلم ت صفوان عدنان .

الخاتمة

الحمد لله الذي شرف بيته الحرام ، وفضله بجعله مثابة وأمناً للأنام ومنّة،وعظّمه بفرض حجه على المستطيع في الكتاب والسنة ، وكرمه بأنّ من حجه تعلق بأستاره يوم القيامة حتى يدخله الجنة ، أحمده أن جعلنا من أهل حرمه ومنحنا بزيارة بيته ، ورزقنا من جميع نعمه ، وأصلي وأسلم على المبعوث رحمة للعالمين

وبعد

فهذه تطوافي البلاغية حول آيات البيت الحرام قد حطت رحالها وتخلت من إحرامها بعد أن قضت أشواطها حول كعبته ، وسعت في محراب عبادته ، لعلها تنال الرضي والقبول على أعتابه..... وقد خرجت هذه التطوافة ببعض الملامح البلاغية التي تعطرت من أريجه،نذكر منها :

أولاً : عند الحديث عن بنائه وإثبات أولية وضعه في الأرض كان اللمح البارز في هذا الموضع كثرة أساليب التوكيد ، ولعل السبب في ذلك هو تفنيد مزاعم اليهود بأن أول مسجد وضع في الأرض هو المسجد الأقصى ، وما ذلك إلا ليثبتوا تقدمهم وأفضليتهم على المسلمين ، فجاء التوكيد هنا بمدور القطع والحسم في هذه القضية ، فأثبت أولية البيت الحرام في الوضع فقال : " إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا وهدي للعالمين " فلو كان الخطاب هنا مقتصراً على المسلمين لما احتاج إلى كل هذه التوكيدات – إنّ وإسمية الجملة واللام الداخلة على خبر إن – وذلك لأن المسلمين باقتناعهم بدينهم وإيمانهم بربهم يصدقون كل أخبار القرآن ، لكن لما كانت القضية محل جدل ومخاصمة بينهم وبين اليهود المشككين اقتضى المقام كل هذه التوكيدات لترد على إنكارهم وتفند تشكيكهم ، وهذا هو دور التوكيد البلاغي .

١٧ – تفسير الواحدي ط دار إحياء التراث العربي الطبعة الثانية .

١٨ – الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ط الهيئة المصري العامة للكتاب .

١٩ –الجدول في إعراب القرآن وصرفه وبيانه تأليف محمود صافي ط دار الرشيد .

٢٠– حاشية الشهاب علي تفسير البيضاوي ط دار إحياء التراث العربي بيروت

٢١ – حروف المعاني للزجاجي ط مؤسسة الرسالة ت علي توفيق محمد .

٢٢ – خصائص التراكيب د أبو موسي ط مكتبة وهبة الطبعة الرابعة١٩٩٦م .

٢٣ – الدر المنثور للسيوطي ط دار الفكر بيروت ١٩٩٣م .

٢٤ – دلائل الإعجاز للشيخ عبد القاهر ت محمود محمد شاكر مطبعة المدني .

٢٥ – روح المعاني للألوسي ط دار إحياء التراث العربي بيروت .

٢٦ – زاد المعاد لابن القيم ط دار الريان للتراث .

٢٧ – السنن الكبرى للبيهقي ت محمد عبد القادر عطا. ط مكتبة الباز مكة المكرمة .

٢٨ – سيرة ابن إسحاق ط دار الفكر الطبعة الأولي .

٢٩ – سنن ابن ماجة ط دار الفكر ت محمد فؤاد عبد الباقي .

٣٠ – شواهد التوضيح لابن مالك ت محمد فؤاد عبد الباقي ط دار العروبة.

٣١ – شعب الإيمان للبيهقي ت محمد السعيد بسيوني دار الكتب العلمية بيروت

٣٢ – صحيح البخاري ط دار ابن كثير الطبعة الثالثة ١٤٠٧هـ.

٣٣ – صحيح مسلم بشرح النووي ط دار إحياء التراث العربي ت عبد الباقي

٣٤ – صفوت التفاسير للصابوني ط مؤسسة مناهل العرفان بيروت .

٣٥ – الطراز للعلوي ط دار إحياء الكتب العربية بدون .

ثانياً : لما كان الحديث في معرض ذكر فضائل ومناقب البيت الحرام جاء التعبير مصدراً بلفظة " إذ " فقال : "وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت" ، " وإذ جعلنا لبيت مثابة للناس وأمنا " ، " وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل " لأن إذ اسم زمان مجرد عن الظرفية منصوب بفعل مقدر تقديره : واذكر أو واذكروا وقت إذ فعلنا كذا وهذا بطبعه يستجلب التذكير بنعم الله على هذه الأمة ، وكأن الله عز وجل يقول لنبيه اذكر لأمتك زمان كشفنا لإبراهيم عن قواعد البيت وتمكينه من بنائه ، ثم جعل هذا البيت محل أمن وأمان لكل الناس حتى يصل الأمر إلى أمتك ليكون لها شرف الولاية لهذا البيت.

ثالثاً : لما كان الحديث في معرض تحريم صدّ قاصدي المسجد الحرام جاء النهي عن ذلك في صور متغايرة ، تنويعاً في الأساليب ليقع الزجر موقعه في القلوب .

فتارة يستخدم الأسلوب الخبري تعريضاً لهؤلاء الصادين فيقول : " إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام الذي جعلناه للناس سواءً العاكف فيه والباد" ثم يحذف الخبر – إيغالاً في هذا التعريض – ليفهم بعد ذلك من جواب الشرط الذي بعده وهو قوله : " ومن يرد فيه بإلحادٍ بظلم نذقه من عذابٍ أليم " فيدخل تحت طائلة العذاب كل من همّ فيه ببعض الظلم وبالأولى يدخل الصادّ عن البيت تحت هذه الطائلة وبخاصة لو كان كافرا ، وهذا إيجاز بديع ينم عن بلاغة وروعة القرآن الكريم .

وتارة يستخدم أسلوب النهي المباشر الذي يثبت التحريم القطعي من بادىء الأمر لتشعر النفس بخطورة التعرض لقاصدي المسجد الحرام فيقول : " يا